

الذُّرُّ النَّقِيَّةُ
بِأَدَابِ مُرِيدِي الطَّرِيقَةِ الشَّاخِطِيَّةِ

أَوْ

مَعَالِمُ التَّحْقِيقِ بِأَدَابِ أَهْلِ الطَّرِيقِ

لِخَادِمِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ

أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ مَنْصُورٍ قُرْطَامٍ

كَانَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايخِهِ



الطبعة الرابعة

مزيّدة ومُصحَّحة

1440 هـ - 2019 م

ISBN: 978-9938-12-997-7

أَلْكَاتِبُ فِي سَطُور

هو شيخنا الفقيه الأصولي المحدث الصوفي أبو الفضل العباس أحمد بن منصور قرطام الحسيني المالكي التونسي الفلسطيني الأصل، ولد في لبنان عام 1381 هجري الموافق له 1960 رومي في مخيمات اللاجئين.

تلقى العلوم الأساسية والإعدادية والثانوية في مدارس اللاجئين في لبنان، والتحق في صفوف الثورة الفلسطينية وعمره عشر سنوات وكانت له مشاركات عديدة فيها.

استشهد والده رحمه الله في شهر شباط عام 1973 رومي.

ارتحل شيخنا لطلب العلوم الشرعية إلى بلدان شتى وأقطار عديدة.

تلقى شيخنا العلوم الشرعية عن ثلة من العلماء الأثبات نذكر منهم:

- الشيخ العلامة الأصولي المحدث سيدي محمد الشاذلي النيفر الحسيني المالكي التونسي عميد جامعة الزيتونة.

- الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي محمد الأخوة المالكي الحنفي التونسي.

- الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي كمال الدين جعيط المالكي الحنفي مفتي الجمهورية التونسية.

- الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي محمد المازوني المالكي التونسي.

- الشيخ العالم الزاهد العابد حامل القراءات السبع المفسر اللغوي سيدي أحمد دريرة المالكي التونسي.
- الشيخ العلامة الأصولي الفقيه المفسر سيدي محمد المنصف جعيط المالكي التونسي.
- السيد العلامة بدر الدين الكتاني الحسني المالكي المغربي.
- الولي الصالح سيدي محمد تقي الدين الكتاني الحسني المالكي المغربي.
- السيد العلامة الأصولي المفسر محمد المنتصر الكتاني الحسني المالكي المغربي.
- السيد العلامة عبد الله التليدي الحسني المالكي المغربي.
- السيد العلامة الأصولي الفقيه محدث وقته وناقد عصره الصوفي الكبير عبد العزيز بن الصديق الغماري الحسني المغربي.
- السيد الإمام الحافظ جامع شتات العلوم الولي الصالح المجاب الدعوة سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني المغربي.
- وتدبّج مع إمام الحرمين سيدي محمد علوي المالكي الحسني المكي.
- تشرف شيخنا بالعديد من الإجازات الخاصة والعامة في مختلف الفنون والعلوم الشرعية.

يروى شيخنا بالسند المتصل الصحاح الخمسة وهي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ويروي موطأ الإمام مالك، وبقية السنن والمسانيد، وكتب المعاجم والأثبات ك: سد الأرب، وفهرس

الفهارس، والبحر العميق، وغنية المستفيد، والطالع السعيد، كما هو مجاز
بالتوى على المذاهب الأربعة.
مما قاله آباؤه رحمهم الله عنه:

قال الشيخ محمد الشاذلي النيفر رحمه الله تعالى:

"وكان محل الابن العالم البحاثة الأستاذ أحمد منصور قرطام الفلسطيني
في طالعة الحاضرين مع اهتمام زائد في تسجيل الفوائد والبحث الصحيح،
أمدته الله بالإعانة، وزاده في زاده العلمي الكثير الوافر مما غفل الناس عنه،
وحفظه ورعاه، كان الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه".

وقال أيضاً في تقريره على كتاب المفاخر العليةً بحديث الرحمة المسلسل بالأولوية:

"ومن وفقهم الله إلى ذلك سعادة الأستاذ الشيخ أحمد بن منصور قرطام
الفلسطيني التونسي البحاثة المطلع النفاة الحريص على التلقي وعلى إبلاغ
ما حصل عليه من زاد فائق، وتحصيل جاد، بلغه الله المراد".

"كل ذلك جعله كفوًّا للتأليف والتدريس، ثم قال: وتوسع في معناه توسع
خريّت - الذي عرف خبايا الأمور-، فأشبع القول مما أفاد فيه وأجاد".

وقال فيه سيدي كمال الدين جعيّط رحمه الله تعالى:

"وإن مقام ابننا الشيخ أحمد لمن الصابرين المولعين بمعرفة أسرار الدين،
المتلقين للمعرفة باليمين، وليت لنا قدراً من الفراغ أوسع في هذا الزمان

الذي كثرت لنا فيه المشاغل والمسؤوليات، التي استغرقت كل الأوقات، ولم تترك لنا ساعة للتذاكر والمراجعة والبحث والمجادلة...".

وقال أيضاً في رسالة بعث بها إلى أهل فلسطين:

"وإن من بين من كَرَعَ من مناهل العرفان، وملاً وِطابه من العلوم الشرعية، أكان في الأصول العقائدية على مذهب السادة الأشعرية، والتفقه في الأحكام العملية والفروع الفقهية على مذهب السادة المالكية، ابننا البار ولدنا الروحي الفاضل الزكي: أبو الفضل حسام الدين أحمد منصور قرطام الفلسطيني الأصل، التونسي المُقام، فقد لازمني وأخذ عني، وتخرج على أيدي علماء من أهل البلد الأجلاء، وإني المسمّى: كمال الدين بن محمد العزيز جعيّط، طالب العلم الشريف، وأحد المتخرجين من جامع الزيتونة ومدرسيه، أجز ابن أحمد المذكور لتدريس العلوم الشرعية، إذ هو أهل لذلك، فقد فاق أقرانه ومن كان في سنه من أمثاله، فاقهم نبلاً وفضلاً، وفهماً وعلماً، وهو من الذين لا يخشون في الله لومة لائم، وقد اختبرته واختبرت تلاميذه ممن أخذوا عنه ونشر علمه بينهم فاستناروا به وانتفعوا به أيّ انتفاع، وقد حَبَّرَ قلمه مسائل عقائدية وأخرى فقهية، وقد انتهزها مريدوه، وقد كنا مستأنسين به بيننا نتجاذب معه أطراف الحديث، ونتباحث في مسائل فقهية وأخرى أصولية، وقد شاء المولى أن ينتقل إلى البلاد الشرقية، وإني جازم بأنه سيؤهله مستواه المعرفي في العلوم الشرعية وتمكنه من أصول الدين وأصول الفقه ومعرفة القواعد من أن تتلقاه أهل

البلد بالإجلال والإكبار، وثرسّمه في سلك علمائها الكبار، وسيقوم إن شاء الله بتدريس العلوم الشرعية، وسينشئ الرسائل والتأليف الفاضحة لزيغ الزائغين، وسيقاوم اعوجاج المتنطعين وتحريف المضلين، وشهادتي فيه أنه: ملأ الوطاب بما حَسُن من العلوم الشرعية وطاب، وأنه تفقه في العلوم الشرعية ومقاصدها بحيث لا تتوارى عنه بحجاب، وهو مؤهل للفتيا بما يجلب له إن شاء الله الخير والثواب، وهو من المجتهدين الجاهدين في طلب العلم المتمسكين بسيرة وسنة سيد المرسلين، الباذلين النفس والنفيس في إعلاء كلمة الله رب العالمين، واللّه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩.

وقال فيه سيدي محمد المازوني التونسي رحمه الله تعالى:

"فإن ابني الأستاذ أحمد منصور قرطام أبي إلا أن يبلغ درجةً قصوى من هضم علم الكلام، فبعد أن درس ذلك عليّ سنة 89 بجامع الزيتونة، ونال مني إجازة في ذلك محررة بخط يدي، ها هو ذا يعيد الكرّة من جديد، أعني بذلك أنه اتصل بي في داري برادس، وطلب مني أن يعيد الدراسة لمزيد التحقيق، ورغبة في التعمق، فلبيت بل رحبت بذلك، وتجددت الصلة بيني وبينه، وكانت الدراسة مني، وكان منه حسن القبول وكمال الاستعداد، وبذلك تجددت مني الإجازة بل الشهادة على حسن الإجابة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وفّقّه الله وأعانّه، وهو بحقٍ جديرٌ بأن يدرس علم الكلام خاصة من كتاب طالع البشري، والسلام".

وقال فيه سيدي عبد العزيز بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى:
"أجزته بالطريقة الصديقية الشاذلية وأذنته بتلقينها للإخوان الصالحين،
والحمد لله رب العالمين".

وقال أيضاً في إجازته على كتاب نبراس الأتقياء ودليل الأنقياء:
"فقد أجزت الأخ الفاضل الصالح البركة السيد أحمد بن منصور بجميع
الأحزاب المذكورة في هذا المجموع".



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ

وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

وَعَلَى كُلِّ مَنْ اهْتَدَى بِهِدَاهُ، وَاتَّبَعَ خُطَاهُ، إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ.

بَيْنَ يَدَيِ الْقَارِي

إن من أهم القضايا التي يعاني منها التصوف ومدارسه بكل طرقها ومشاربها المتبعة في هذا الزمان ما يظهر من الدعاوي العريضة التي يدعيها جهلة المتصوفة، وأثرها الغير محمود على الطريق وأهله، فتجد منهم من يبرر جهله وخروجه عن طريق الحق وأهله بزعمه أنه لا حاجة للعلوم الشرعية ما دام شيخ الطريق حياً، وأنه يكفيهم تحمل أعباء التعلم، وإن هذا هو الضلال والمروق من الدين بعينه.

كيف وقد قال شيخ الطائفة سيدي ومولاي الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى: "طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به"¹، فتحصيل علوم الدين الضرورية من: توحيد، وفقه، هو أساس الوصول للعلوم الأخرى لا سيما طريق القوم، ومن الخطر بمكان أن كثيراً من الناس يمتلكون الإجازات التي تنتسب بهم إلى مشايخ كبار الطرق، ولكنهم من الناحية العملية والتطبيقية لا يعرفون شيئاً عن الطريق التي ينتمون إليها، ولا حتى عن كيفية ترتيب أوراها، وكيفية الذكر بها، لأن كل همهم الحصول على الإجازة لا الانتساب لأصل

(1) الإمام محمد بن الحسين السلمي: طبقات الصوفية، ص: 141.

الطريق، زيادة على ما سبق فإنهم لا يعرفون جملةً ولا تفصيلاً حقيقة التلقين، ولا ماهيته، وما معنى الخلوة، والإذن، والصحبة، وخدمة الشيخ، وما سوى ذلك من القواعد والأسس التي تنبني عليها الطريق، ومن باب أخرى وأولى عدم معرفة الفوارق التي يختلف بها هذا المربي عن ذاك في تسليك المريدي، ورغم ذلك نجدهم يدعون الانتماء إلى أهل الله بسبب تلك الإجازة، والصحيح أنهم لم يتأدبوا على يد شيخ ويلازموه ويتلقوا عنه الأوراد وبقية ما يتعلق بعلم القوم، فكان لزاماً علينا أن نبين في هذه الرسالة أقل الواجب الذي يحتاجه كل من أراد أن يسلك طريق القوم، بفروعها المنتشرة من قادرية وشاذلية ورفاعية وغيرها من الطرق المؤسسة على أصول الحق من علماء الإسلام قاطبةً، لأن الطرق منبعها واحد وفروعها متعددة ومصبها واحد، فهي مشتركة بالمنبع والمصب، ومختلفة بطرق الوصول كبقية المدارس المتبعة التي تصل بالمؤمن الصادق إلى مرضاة الله.



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي زين قلوبنا بالإيمان، ومَنَّ على ظواهرنا وجوارحنا بالإسلام، وزكى نفوسنا وجعلها في مقام الإحسان، والصلاة والسلام على من ازدانت بوجوده الأكوان، وعلى آله أهل الصفاء وملجأ الخلان، وصحبه أهل الصدق والعرفان، وعلى كل من اهتدى بهديهم وسار على نهجهم على مر الزمان.

أَمَّا بَعْدُ: فإنه قد رَغِبَ إِلَيَّ من شُغَفَ بجهم قلبي أن أبين لهم بعض آداب طريق القوم، التي يحتاج إليها كل مبتدئ ولا يستغن عنها كل منتهي، ولا سيما بعد أن تلقوا عني كثيراً من العلوم الأساسية: كالتوحيد والفقهِ وأصوله وعلم مصطلح الحديث ومتعلقاته وعلوم القرآن، مع مجالستهم لي منذُ قدومي إلى غزة هاشم قبل ستة عشر سنة - 1419 هجري الموافق 1998 رومي - وحضورهم معي حلقتي ذكرِ الخميس والسبت وما يدور فيهما من كيفية الذكر ابتداءً وانتهاءً وقراءة الأحزاب، مع كثرة مذاكرتهم وترغيبهم في التصوف وأهله، وتميزهم عن سواهم من العلماء سالفاً وحاضراً ومستقبلاً، فلبّيت رغبتهم بما طلبوا بل ورحبت بذلك غاية الترحيب، لما فيه من تأدية واجبٍ من الواجبات التي تتعلق بالمقامات الثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان، قربةً لله ولرسوله، وأداءً للأمانة التي

أُنِيَّتْ بِأَعْنَاقِنَا وَهِيَ نَشْرُ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ، وَنَسَبْتَهُ إِلَى أَهْلِهِ تَوْحِيداً وَفَقْهاً
 وَسُلُوكاً، كَمَا سَنَبِينَهُ لِاحْتِقَاءٍ، وَنَزُولاً عِنْدَ أَمْرِ سَيِّدِي وَمَوْلَايِ وَوَلِيِّ نَعْمَتِي فِي
 الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدِ الصَّدِيقِ الْغَمَارِيِّ الْحُسَيْنِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَى
 آبَائِهِ السَّلَامِ، قَمْتُ بِجَمْعِ الْحَدِّ الْأَدْنَى مِنَ الْأَدَابِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى مُنْتَسِبِي
 الطَّرِيقَةِ الشَّاذَلِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُنْتَشِرَةِ انْتِشَارَ الشَّمْسِ عَلَى الْأَرْضِ بِالطَّوْلِ
 وَالْعَرْضِ، وَالَّتِي حَصَلَ مِنْهَا النِّفْعُ الْعَمِيمُ، فَكُمُ مِنْ شَارِدٍ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى
 رُدُّوهُ، وَكُمُ مِنْ غَافِلٍ ذَكَرُوهُ، وَكُمُ مِنْ بَعِيدٍ مَطْرُودٍ قَرْبُوهُ وَأَدْنُوهُ، وَكُمُ مِنْ
 فَقِيرٍ وَاسُوهُ وَاغْنُوهُ، وَكُمُ مِنْ جَائِعٍ أَطْعَمُوهُ وَأَشْبِعُوهُ، وَكُمُ مِنْ ظَمَّانٍ سَقَوْهُ
 وَأَرْوَوْهُ، وَكُمُ مِنْ خَامِلٍ ذِكْرُهُ أَشْهُرُوهُ وَأَظْهِرُوهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ تَمَكُّنِهِمْ
 مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ انْتِشَارَ
 طَرِيقِهِمْ مِنْ كَثْرَةِ أَنْوَارِهِمْ، وَشِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَى مُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ الْأَعْظَمِ
 وَالرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكُمُ مِنْ سَنَةِ أَحْيَايَاهَا، وَكُمُ مِنْ
 بَدْعَةٍ أَبْطَلُوهَا، وَكُمُ مِنْ نَارِ فِتْنَةٍ أَخْضَدُوهَا، وَانْتَشَرَتْ بِرَكَاتِهِمْ فَمَلَأَتْ الْأَفَاقَ،
 وَإِنِّي وَاصِفُهُمْ وَهُمْ يَقِيناً فَوْقَ مَا وَصَفْتُهُمْ، وَنَاطِقٌ وَيَقِينِي أَنِّي مَا أَنْصَفْتُهُمْ،
 وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ:

أَنَا لَا أَعْرِفُ إِلَّا أَنْتُمْ

فَا جَبُرُونِي بِعَطَائِكُمْ

كُلُّ شَخْصٍ لِعَزِي زَيْنُ تَمِي
وَعَزِي زِي لَيْسَ إِلَّا أَنْ تُمْ

هذا وأقول لذوي التحقيق المتخلقين بمحاسن الأخلاق، والسالكين طريق المحبة والتصديق من أهل العلم والعمل، الرافعين همهم عن مواقع النقص والزلل، اعتذاراً لهم واعترافاً بفضلهم: أنا اعترف أن ليس لي في هذا التصنيف سوى الجمع والترتيب، فليلتقط الناظر الحكمة ولو من غير حكيم، ويغتنم العلم ولو من غير عليم، وإنما أنا متطفل وجمع كلامهم متكفل، من تأليفهم استقي، ومن تصانيفهم أنتقي، فلا أرى لنفسي من مناصب المصنفين استحقاقاً، ولا لي بأدنى مراتب المؤلفين لحاقاً، ولولا ذهاب العلم وانقراض أهله الأعلام ما خاض مثلي في هذه البحور العظام، ولا جعل قلماً بين السبابة والإبهام، قال أبو علي البصير:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَّى
إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ
وَصَوَّحَ نَبْتَهُ رُجْعِي الْهَشِيمُ

ولأن كتاب المرء عنوان عقله، وميزان علمه، إذ منه تعرف صفاته، فعقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم، بها يستدل على مقدار معرفة

أفهامهم، ولست أجهل أن هذا الأمر قد سبق إليه غيري من قبلي، لكن أردت أن أجمع هذا لنفسي وإخواني ومن كان مثلي، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن بن فارس رحمه الله تعالى: "لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب في التعلم أدب غزير، ولضلّت أفهام ثاقبة، ولكتّ الألسنة، ولمجّت الأسماعُ كُلُّ مُرَدِّدٍ، ولفظت القلوب كُلُّ مُرْجِعٍ" إهـ.

ولقد اعتذر من ألف ممن هو أحق مني بالتصنيف، والجمع والتأليف من أكابر العلماء وأعيان السادات الصوفية النبلاء عما لا يخلو منه الإنسان من الخطأ والنسيان، ومع ذلك لم يخل أحد منهم عن متعنت بغير الحق ومنتقد، وعن منصف بالحق معتقد، ولله در القائل:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ عِيُوبِ النَّاسِ مَا سَاتَرُوا
فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكََا
وَأَذْكَرَ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَرُوا
وَلَا تُعِيبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكََا

وأسأل الله تعالى بحبيبه ومصطفاه، أن يسترنا ويجعلنا ممن قربه واجتباها، وملاً قلبه بحب مولاه، وشغل لسانه بذكر لا إله إلا الله.



فصل في ترتيب العلوم، وأهميتها، وكيفية تلقيها

إعلم أيها المريد أن:

(1) الواجب الأول على الاطلاق: في حق المكلف، البالغ، العاقل، الذي وصلته دعوة الإسلام، في حال كونه متمكناً من النظر، وخالياً من المانع، معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام، وذلك بالصفات التي نصب الله تعالى عليها الأدلة والبراهين، إذ الجهل بالصفة جهل بالموصوف، وإن شرف العلم بالمعلوم، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْرَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴿طه: ١٤-١٥، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَوَكُمُ﴾ محمد: ١٩، فهذه الآيات من القرآن فيها إشارة إلى علمين: علم التوحيد، وعلم الفروع، وقد قدم الله تعالى ما فيه إشارة إلى علم التوحيد على ما فيه إشارة إلى علم الفروع، ففهم العلماء من ذلك أن علم التوحيد أشرف العلوم وأفضلها على الإطلاق، وقد خصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نفسه بالترقي في هذا العلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ

يَتَزَهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ
 حَشِيَّةً" رواه البخاري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
 وَسَلَّمَ: (إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) رواه البخاري.

ولأن الأعمال الصالحة لا تقبل بدون الإيمان بالله ورسوله، وأن شرف
 العلم بالمعلوم، فهَمَّ العلماءُ رضي الله عنهم أن أشرف العلوم وأولاها على
 الإطلاق هو علمُ التوحيد، وما أجمل قولَ الأستاذِ أبي عبد الله محمد بن
 أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي البصري:

أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِتَطْلُبَ عِلْمًا
 كُلُّ عِلْمٍ عِبْدٌ لِعِلْمِ الْكَلَامِ
 تَطْلُبُ الْفِقْهَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْمًا
 ثُمَّ أَغْفَلَتْ مُنْزِلَ الْأَحْكَامِ

وقد قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى عنه في الفقه الأيسر: "اعلم أن
 الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام"، وقال أيضاً: "أصل التوحيد وما
 يصح الاعتقاد عليه، وما يتعلق بالاعتقادات هو الفقه الأكبر"، وقال إمامنا
 الشافعي رحمه الله تعالى: "أَحْكَمْنَا ذَلِكَ قَبْلَ هَذَا"، معناه: أتقنا علم التوحيد

قبل علم فروع الفقه، وقال إمام أهل السنة في هذا العلم - أي علم التوحيد - أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى: "أول ما يجب على العبد: العلم بالله ورسوله ودينه"، وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود"، لئلا يُعبد الله على جهل، ولتتميز صفات الخالق عن صفات المخلوق، كاعتقاد من يعتقد أنه جسمٌ، أو جالسٌ أو في جهةٍ من الجهات، أو وَصَفِهِ بصفةٍ من صفات البشر - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -، فهذا عبادته تكون لشيءٍ توهمه في مخيلته فيكون مشركاً بالله، وعلى ذلك إجماع أهل السنة كما هو مقرر في بابه من كتب العقائد، وكما هو مبسوط في كتب الفقه من باب الردة أعاذنا الله وإياكم منها، وعلى هذا المعنى فلا تصح عبادته مهما أوتي من صيام وقيام وصدقات، لأنه فاقد لأصل الإيمان، وذلك لما جاء عن جندب بن عبد الله قال: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَأَزْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا) رواه ابن ماجه، وعن عتبان بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ) رواه البخاري ومسلم، فَفَهُمَ الْعُلَمَاءُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ مِنْ أَتَقَنَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ لَا

يخلد في نار جهنم على ما كان من العمل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ النساء: ٤٨.

(2) الواجب الثاني على المكلف هو: تحصيل الفروع الفقهية التي تندفع بها الوسوس الشيطانية، وتصح بها العبادات والمعاملات المرضية، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ التوبة: ١٢٢، فثببت لنا الآية عظم مكانة الفقه، وسمو منزلة الساعين لتحصيله، وقال تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ محمد: ١١٩، ولقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "أحكمننا ذلك قبل هذا" فيه تصريح منه أنه بعد تحصيل الشهادتين لا بد من تحصيل حقهما وهو الصلاة والصوم والحج والزكاة، وهو المعبر عنه بضروريات الدين، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه: ١٤، في هذه الآية دلالة صريحة على وجوب تعلم الصلاة وما يتعلق بها من أحكام بعد إتقان التوحيد لأنها رأس الأعمال وعماد الدين، وقد عرّف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام في حديث جبريل فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ) رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) "رواه البخاري"، فلا غنى لكل مكلفٍ عن هذا العلم لمعرفة الحلال من الحرام، والخبيث من الطيب، وصحيح العبادات والمعاملات من فاسدها، فيعبد ربه على علمٍ وبصيرة، وقد نوه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على مكانة الفقه وحامله فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهِ فِي دِينٍ، وَلَفِقْهِ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الْفِقْهُ) "رواه الطبراني في المعجم الكبير"، وما أجمل قولَ القائل:

إِذَا مَا اغْتَرَّ ذُو عِلْمٍ بِعِلْمٍ
فَعِلْمُ الْفَقْهِ أَشْرَفُ فِي اغْتِرَازِ
فَكَمِ طَيْبٍ يَفُوحٌ وَلَا كَمْسُوكِ
وَكَمِ ظَيْرٍ يَطِيرُ وَلَا كَبَّازِ

فإذا كان الفقه بهذه المرتبة الشريفة، والمزايا المنيفة، لما اشتمل عليه من الأسرار الإلهية، كان الاهتمام به في الدرجة الأولى بعد التوحيد الذي يجب تحصيله قبل كل شيء، وصرف الأوقات النفيسة بل العمر فيه أولى؛ لأنه به تصح العبادة وتسلم من الفساد وتُحف بالرضوان والقبول من الله عَزَّجَلَّ،

فسبيله سبيل الجنة وطريق المهتدين، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، والعمل به حرزٌ من النار.

(3) الواجب الثالث الذي لا بد من تحصيله هو: تهذيب النفس وإصلاحها وتطهيرها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه، ويزلف لديه من الأحوال والأقوال والأعمال، وتصفيتها من دنس الأخلاق الذميمة، مثل الهمز والغيبة والنميمة، وتخليتها من الرذائل الشنيعة، مثل الغل والحسد وحب الذات، وهي من أخبث صفات المرء الباطنة، وتخليتها بأنواع الفضائل من الصفات المدوحة، مثل كظم الغيظ والإيثار وحب الخير للناس، والرقى بالأرواح إلى مراتب الفلاح، وهو ما يعبر عنه بعلم الزهد أو السلوك أو الأخلاق أو الأدب، فكلها مسميات لعلم واحد وهو علم التصوف الذي هو في الحديث مقام (الإحسان)، والذي هو أحد أركان الدين الثلاثة، لما جاء عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ: أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" رواه مسلم.

فَيَتَبَيَّنُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ مَقَامَ الْإِحْسَانِ الْمِصْطَلَحَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِالتَّصَوُّفِ مِثْلَ اصْطِلَاحِهِمْ لِبَقِيَّةِ الْعُلُومِ، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)، فَالتَّصَوُّفُ بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ تَحْقِيقُ لِمَقَامِ الْإِحْسَانِ بَعْدَ تَصْحِيحِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، إِذْ لَا تَصَوُّفٌ إِلَّا بِفِقْهِهِ، كَمَا لَا فِقْهَ إِلَّا بِاعْتِقَادِ وَإِيمَانِ، فَلَا سَبِيلَ لِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَا إِلَّا بِهِ، كَمَا لَا فِقْهَ أَيْضًا إِلَّا بِتَّصَوُّفِهِ، إِذْ لَا عِبْرَةَ بِفِقْهِهِ لَا يَصْحَبُهُ صِدْقٌ

التوجه، قال الشيخ زروق المالكي رحمه الله تعالى: "التصوف علم قُصِدَ لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقهاء لإصلاح العمل وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان باليقين، كالتب لفظ الأبدان"، فيؤخذ من هذا وجوب معرفة هذا العلم، ولهذا لم يزل أئمة الإسلام وهداة الأنام قديماً وحديثاً يرفعون مناره، ويُجلون مقداره، ويعظمون أصحابه، فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، ومن أثمن ما قيل في التصوف قول الإمام أبي الحسن الشاذلي المالكي رحمه الله تعالى: "التصوف تدريب النفس على العبودية، وردّها لأحكام الربوبية"، وقول سيد الطائفتين الإمام الجنيد الظاهري رحمه الله تعالى: "التصوف استعمال كل خلقٍ سنّي، وترك كل خلقٍ دني".

وما أجمل قول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى:

يَا مَنْ تَقَاعَسَ عَنْ مَكَارِمِ خُلُقِهِ

لَيْسَ التَّفَاخُرُ بِالْعُلُومِ الظَّاهِرَةِ

مَنْ لَمْ يُهَيِّئْ دَبَّ عِلْمِهِ أَخْلَاقُهُ

لَمْ يَنْتَفِعْ بِعُلُومِهِ فِي الْآخِرَةِ

فعماد التصوف تصفية القلب، وتطهير النفس من الأخلاق الذميمة،
وتعمير الظاهر والباطن، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم لنيل المراد
وهو السعادة الأبدية.



كيفية تلقي العلوم

إعلم أيها المرید أنه لا یصح أخذ العلوم ابتداءً من الكتب إلا بعد أن یتلقى الطالب نصیباً منها عن العلماء، حتی تتكون له ملكة یتستطیع أن یمیز بها المكلف الخطأً من الصواب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقد أجمع علماء التفسیر وغيرهم أن أهل الذکر هم العلماء، ومما لا یشك به عاقل أن الله سبحانه وتعالى أمر باتباع أنبيائه فقال جلّ وعلا: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولكن أردنا التنبيه على وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنفهم ونقيم الدليل القطعي على وجوب اتباع العلماء، لأنهم ورثة الأنبياء، ولا نفهم حقيقة من يدعي اليوم أنه متبّع لسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو مُعْرَضٌ عن العلماء، وبذلك يكون مخالفاً للكتاب والسنة والإجماع، ومن السنة ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا قُرْبَ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) "رواه الترمذي"، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة، ويؤيده ما جاء عن ابن عباس قال: سمعت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول:

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (اللَّهُمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي)، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي، يَرُوُونَ أَحَادِيثِي وَسُنَنِي وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث، قَالَ القسطلاني في مقدمة "إرشاد الساري" بعد ذكر هذا الحديث: "ولا ريب أن أداء السنن إلى المسلمين نصيحة لهم من وظائف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فمن قام بذلك كان خليفة لمن يبلغ عنه، فدعا لهم بالرحمة وسماهم خلفاءه"، وقد جاء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْعَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ) رواه البيهقي في المدخل، فيفهم من هذه الأحاديث بيان عدالة العلماء عامة، ويفهم أيضاً أن أخذ العلم لا يكون إلا بالتلقي، وقد روى الإمام الخطيب البغدادي بإسناده عن موسى بن يسار - أحد المشهورين - أنه قال: "لا تأخذوا العلم إلا من أفواه العلماء"، وقال أيضاً: "الذي يأخذ العلم من الكتاب يقال له: الصُّحْفِيُّ، والذي يأخذ القرآن من المصحف يقال له: مُصْحَفِيُّ"، ولهذا أوجب العلماء نقل كل شيء إلى قائله بالسند المتصل، والأصل في ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ

بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" رواه الطبراني، والمدار في فهم الحديث يتوقف على كلمة (إِنَّمَا) المركبة من (إِنَّ) المؤكدة و(مَا) النَّافِيَة، قال علماء البلاغة: "إذا ما التقى التوكيد والنفي واجتمعا في كلمة واحدة مثل (إِنَّمَا) فَإِن ما بعدهما يفيد الحصر"، فيكون معنى الحديث: لا يكون العلم إلا بالتعلم، وقال الشاطبي في كتابه "الموافقات": "كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال"، فنفهم أنه لا مجال للتعلم ابتداءً إلا بالتلقي عن الرجال ولو كانت العلوم في بطون الكتب، والمقصود من قوله: "بطون الكتب" أنها أصبحت أوعيتها بعد أن كانت العلوم أوعيتها صدور الرجال، وفي هذا أنشد أبو حيان الأندلسي صاحب تفسير "النهر المادّ" قائلاً:

يَظُنُّ الْعَمْرُ أَنَّ الْكُتُبَ تَهْدِي

أَخَاجَهُ لِي لِإِذْرَاكِ الْعُلُومِ

وَمَا يَدْرِي الْجُهْلُ وُلِّ بِأَنَّ فِيهَا

عَمَامِضَ حَايَّرَتْ عَقْلَ الْفَهْمِ

إِذَا رُمَتْ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ

ضَلَلْتُ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلَّتْ بِسُ الْعُلُومِ وَعَلَيْكَ حَسْبِي
تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تَوْمَا الْحَكِيمِ

ولا شك أن الكتب التي يطالعها الشخص لا تخلو من دسّ أو افتراءٍ على الدين، أو يفهم منها أشياء على خلاف ما هي عليه عند السلف والخلف على ما تناقلوه جيلاً عن جيل، فيؤدي إلى عبادة فاسدة، أو أن يقع في الحرام، أو في الكفر والضلال أعاذنا الله وإياكم، وأقلُّ ما يكون في الكتب أنها لا تخلو أيضاً من خطأ مطبعيٍّ، وعلى كل حال فاعلم أن ليس ذلك سبيل التعلم الذي نهجه السلف، إذ لا بد من تعلم أمور الدين من عارف ثقة يكون أخذ عن ثقة، وهكذا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ عن ربِّ العزّة سبحانه وتعالى، ولهذا أوجب العلماء نسبة كل شيء إلى قائله وذلك بالنقل المعتبر، عند أهل الفن والأثر، وهو المتفق على تسميته بالسند، وكل ذلك لما في السند من الفضل على غيره، فهذه الأقوال المنقولة إلينا بالتلقّي من أفواه العلماء نقلت بالسند كما نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أصل من أصول الدين مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي، وبهذا تعلم أن كل منقول

متوقف قبوله أو رده على السند والتلقي، ولولا التلقي لما كان السند، فإن صحَّ السندُ ثبت نقل الخبر، وإن لم يصح انتفى ثبوته، وبهذا الميزان يُحاكم كل ما يُنقل من قرآنٍ وحديثٍ وفقهٍ وتصوفٍ وغيره من العلوم، زيادة على الإذن والتلقين والبيعة، وكل ذلك مبالغٌ فيه عند السادة الصوفية، ولا يتحقق هذا عندهم إلا بالتلقي، وهو صفة المحققين من أهل العلم، ومما هو معلوم عند كل أهل فن أنه لا مشاحة في الاصطلاح، وعلم التصوف أولى من غيره في الصحبة والتلقي وذلك لدقة معانيه والتي لا يفهمها غالب الناس لغور معانيها ونفور الجهال منها، وما أجمل ما قاله سيدي أحمد زروق المالكي الشاذلي: "كثر المدعون في هذا الطريق لغرته، وبعدت عنه الأفهام لدقته، وكثر الإنكار على أهله للطافته، وحذر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه"، وبهذا تعلم سر تلقي سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي عن جبريل رغم أنه أفضل منه، وبهذا التلقي يكمن سرُّ الشريعة الإسلامية، فكيف يتجرأ غالب المنتسبين للعلم ولا سيما أدياء التصوف ويقولون: إنه لا حاجة إلى التلقي بعد أن دونت العلوم في الكتب؟!.



فصل في مبادئ علم التصوّف

قال الامام أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المالكي¹:

مَنْ رَامَ فَنَّا فَلَئِمَّا دَمَّ أَوْلَا
عِلْمًا بِحَدِّهِ وَمَوْضُوعٍ تَلَا
وَوَاضِعٍ وَنَسَبَةٍ وَمَا اسْتُمِدَّ
مِنْهُ وَفَضْلِهِ وَحُكْمٍ يُعْتَمَدُ
وَأَسْمٍ وَمَا أَقْبَادَ وَالْمَسَائِلُ
فَتِلْكَ عَشْرٌ لِلْمُنَى وَسَائِلُ
وَبَعْضُهُمْ فِيهَا عَلَى الْبَعْضِ اقْتَصَرَ
وَمَنْ يَكُنْ يَدْرِي جَمِيعَهَا انْتَصَرَ
* أَوْلَا: حَدُّ التَّصَوُّفِ:

قال سيد الطائفة الإمام الجنيد: "هو أن يملك الحق عنك ويحييك به"،
وقال أيضاً: "الصوفي كالأرض يطرح عليه كل قبيح، ولا يخرج منه إلا كل
مليح، ويطؤه البر والفاجر".

(1) هذه الأبيات للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المقرئ المتوفى سنة 1041 هـ، وقد اقتبس منها الإمام أبو العرفان محمد بن علي الصبان المصري المتوفى سنة 1206 هـ أبياتة المعروفة.

وقال الشيخ زروق: "قد حُدَّ التَّصَوُّفُ ورُسِمَ وفُسرَ بوجوه تبلغ نحو الألفين، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه والله أعلم".

ثم قال: "والاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دَلٌّ على بعد إدراك جملتها، ثم إن هو رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله واعتبار كل واحد على حسب مثاله، عملاً وحالاً وذوقاً، وغير ذلك، والاختلاف في التصوف من ذلك، ومن أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله بغالب أهل حليته عند تحلية كل شخص قولاً من أقوالهم يناسب حاله قائلاً: وقيل إن التصوف كذا، فاقضى أن كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه، فافهم" إنتهى.

وقال أيضاً قاعدة صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ الزمر: ٧، فلزم تحقيق الإيمان ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الزمر: ٧، فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوف إلا بفقهِه إذ لا تُعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، ولا فقهه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق توجهه، ولا هما إلا بإيمان

إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا كمال لها أي للأشباح إلا بها أي الأرواح.

ومنه قول الإمام مالك رحمه الله تعالى: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق". قلت: وبغض النظر من عدم صحة نسبة هذا القول للإمام مالك من ناحية اتصال السند إلا أن معناه مما لا شك فيه صحيح.

* ثانياً: موضوع التصوف:

وأما موضوعه: فهو الذات العلية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها، إما بالبرهان أو بالشهود والعيان، فالأول للطالبيين، والثاني للواصلين. وقيل: موضوع النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها وهو قريب من الأول لأن من عرف نفسه عرف ربه.

* ثالثاً: واضع علم التصوف:

وأما واضع هذا العلم فهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، علمه الله إياه بالوحي والإلهام، فخص بها بعضاً من أصحابه دون بعض.

ولكن مما لا شك فيه أن التصوف كان موجوداً عند أصحابه ولكن الذين تميزوا به من الصحابة: السيدة فاطمة، وسيدنا علي، وسيدنا الحسن، عليهم السلام، وسيدنا أبا ذر، والسيدة أم سلمة، وأهل الصفة، وسيدنا حُجر بن عدي، وغيرهم.

* أما واضعه علي معنى التحقيق وأول من تكلم فيه وأظهره بهذه الطريقة المتعارف عليها فهو سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام، وأفعاله وأقواله قد جُمعت في مصنفات كثيرة منها "نهج البلاغة" وهو مجموع ما اختاره الشريف أبو الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوي من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام، ودستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم (من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) تأليف قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي الشافعي، وأخذ عنه ابنه سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام، وهذا نجده مبسوطاً في أدعيتهما وتوسلاتهما عليهما السلام، وقد ورث هذا العلم في زمن التابعين سيدنا زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، وله الصحيفة السجادية التي حوت غالب أدعيتهم، وأويس القرني وحادثته مع سيدنا عمر وسيدنا علي مشهورة لا تحفى، والحسن البصري، وهكذا، إلى أن وصل إلى أبي القاسم محمد بن الجنيد الزجاج البغدادي،

وكلامه وحقائقه مدونة في الكتب، ثم انتشر التصوف في أصحابه ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

* رابعاً: اشتقاق اسم التصوف:

وأما اسمه: فهو علم التصوف، واختلف في اشتقاقه على أقوال كثيرة، سيأتي تفصيلها وبيانها لاحقاً في فصل مستقل.

* خامساً: استمداد التصوف:

وأما استمداده: فهو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين، بسبب كثرة العلم والعمل، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ۝١﴾

الْمَزْمَلُ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨﴾

وقال عز وجل ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝١﴾ ﴿فَرَأَنذَرُ ۝٢﴾ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ ۝٣﴾ ﴿وَيَبَاكَ فَطَهِّرُ ۝٤﴾

﴿فَأَهْجُرُ ۝٥﴾ ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسَكُّثُ ۝٦﴾ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ۝٧﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٤، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: ٤٤.

ولحديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ،

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعَ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا) "رواه مسلم"، وجاء عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) "رواه أحمد"، وكنداء سيدنا عمر رضي الله عنه على سارية وتنبهه على الجبل وهو في المدينة المنورة وسارية في بلد الفرس، وكذلك ما نقله الأربلي في كتابه "كشف الغمة في معرفة الأئمة" بإسناده عن أبي حبيب النباجي قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وافى النباج ونزل في المسجد الذي ينزله الحجاج في كل سنة، وكأني مضيت إليه وسلمت عليه ووقفت بين يديه، فوجدت عنده طبقاً من خوص المدينة فيه تمر صيحاني وكأنه قبض قبضة من ذلك التمر فناولني فعدده فکان ثمانی عشرة تمره، فتأولت أني أعيش بعدد كل ثمرة سنة، فلما كان بعد عشرين يوماً كنت في أرض تعمر بين يدي للزراعة إذ جاءني من أخبرني بقدم أبي الحسن الرضا عليه السلام من المدينة ونزوله في ذلك المسجد ورأيت الناس يسعون اليه، فمضيت نحوه فإذا هو جالس في الموضع الذي كنت رأيت فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتحتة حصير مثل ما كان تحتة، وبين يديه طبق من خوص فيه تمر صيحاني، فسلمت عليه فردّ علي السلام، واستدنانني فناولني قبضة من ذلك التمر

فعدته فإذا هو بعدد ما ناولني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت:
 زدني يا ابن رسول الله فقال: لو زادك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 لزدناك"، وغيرها كثير، وهي مبسوسة في كتب القوم، ككتاب "الكواكب
 الدرية في تراجم السادة الصوفية" للإمام المناوي، وكذلك كتاب "الطبقات
 الكبرى" للإمام الشعراي، والله تعالى أعلم.

* سادساً: حكم التصوف:

وأما حكم الشارع فيه أنه فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب أو
 مرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجوباً قبل النبوة وبعدها ومن
 عصمه الله من غير الأنبياء جوازاً، إلا أنه يجب تعلمه لأنه المقام الثالث
 بعد الإسلام والإيمان، وهو المعبر عنه بالإحسان.

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي: "من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً
 على الكبائر وهو لا يشعر، وحيث كان فرض عين على كل مكلف يجب
 السفر إلى من يأخذه عنه إذا عرف بالتربية واشتُهر الدواء على يده، وإن
 خالف والديه حسبما نص عليه غير واحد"، وما أحسن قول القائل:

أَخْطِرُ فِي مَحَبَّتِكُمْ بِرُوحِي

وَأَرْكَبُ بِحُرْمَتِكُمْ إِمَامًا وَإِمَامًا

وَأَسْأَلُكَ كُلَّ فَجٍّ فِي هَوَاكُمُ
وَأَشْرَبُ كَأَسْكَكُمْ لَوْ كَانَ سُمًّا
وَلَا أَضْغِي إِلَى مَن قَدَنَهُ نِيَابِي
وَلِي أُذُنٌ عَنِ الْعُذَالِ صَمًّا
أَخْطِرُ بِهَا الْخَوَاطِرَ فِي هَوَاكُمُ
وَأَتْرُكُ فِي رِضَاكُمْ أَبَا وَأُمَّأ

* سابعاً: مسائل تصور التصوف:

وأما تصور مسأله فهي معرفة اصطلاحاته والكلمات التي تتداول بين القوم: كالإخلاص، والصدق، والتوكل، والزهد، والورع، والرضى، والتسليم، والمحبة، والفناء، والبقاء، والقبض والبسط، والجلال والجمال، والتنزيه، والصفات، والذات، والوحدانية والقدرة، والحكمة، ومعرفة حقيقة الحال، والمقام، والوارد، والخلوة، وغير ذلك مما اصطلحوا عليه.

واختصر كل ذلك ابن عجيبة في كتابه "معراج التشوف إلى حقائق التصوف" فليطالعه من أراد له يستعين به على فهم كلام القوم.

والتحقيق أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فيجب على كل من أراد الولوج في طريق القوم أن يتصور كل هذه المعاني التي ذكرناها وغيرها من مسائل هذا الفن، قبل الشروع في الخوض فيه علماً وعملاً، والله تعالى أعلم.

* ثامناً: فضل التصوف:

وأما فضيلته فقد تقدم أن موضوعه الذات العلية، فالعلم الذي يتعلق بها أفضل العلوم على الإطلاق، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى، وبوسطه على معاملته، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه.

ولذلك قال الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد: "لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه".

* تاسعاً: نسبة التصوف من العلوم:

وأما نسبه من العلوم فهو كلي لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى، فالإخلاص شرط في الجميع، وهذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب، وأما باعتبار الوجود الخارجي، فالعلوم توجد في الخارج بدون التصوف لكنها ناقصة أو ساقطة ولا تكمل إلا به، وقال الشيخ زروق: "نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد لأنه

مقام الإحسان الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) الحديث، إذ لا معنى له سوى ذلك، لأن مداره على مراقبة النفس ومساءلتها بصفة دائمة".

* عاشراً: فائدة التصوّف:

وأما فائدته فتهديب النفس، وتصفية القلوب، ومعرفة علام الغيوب، والترفع عن سفاسف الأمور والنظر إلى معاليها، طلباً لمرضاة خالقه لكي يحظى برضاه، وينعم في الآخرة بكل ما أعده له مولاه، والله ولي التوفيق.



فصل فی تعريف التّصوّف

إعلم أيها المرید أنه قد كثرت الأقوال فی اشتقاق التصوف وتنوعت، ولكنّ الناظر المدقق فی هذه الاشتقاقات یجدها مترابطة فیما بینها وإن اختلفت فی ظاهرها، فهي مكملة لبعضها البعض فی باطنها:

- أولاً: أنه مشتق من (الصوف) قال الإمام ابن عجيبة فی توضیح هذا الاشتقاق "لأنّ جُلّ لباس أهله الصوف، آثروه تقللاً من الدنيا وزهداً فیها، اختاروا ذلك لأنه كان لباس الأنبياء عليهم السلام، وهذا الاشتقاق أنسب إليه لغةً وأظهر نسبةً، يقال: تصوف إذا لبس الصوف. كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، والنسبة إليه صوفي" انتهى بتصرف.

- ثانياً: أن الصوفية مُشتقة من (قوم صوفة): وهم قوم انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة فی الجاهلية، لأنهم يرون أنفسهم كصوفة ملقاة فی الأرض والرياح تحركها فلا يشاهدون الأفعال من أنفسهم وإنما يشاهدونها من ربهم.

- ثالثاً: أنه مشتق من (الصُّفة) وقد كان أهل الصفة جماعة من فقراء المهاجرين والأنصار، لم یکن لهم أهل ولا مال، فَبُنِيَتْ لهم صُفَّةٌ فی مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انقطعوا فیها إلى الله، وعكفوا على العبادة ورياضة النفس، والتجرد عن أغراض الدنيا، وهم الذين نزل فیهم

قوله تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال المولى عز وجل: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف: ٢٨.

- رابعاً: أنه مشتق من (الصفاء) لأن مداره على التصفية فهو يصفي القلوب،

قال الإمام الغزالي في إحيائه، التصوف هو: "تجرد القلب لله تعالى واستحراق ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح".

قال ابن الحاج في شرحه على ميارة "التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة: كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل، وبه يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله سبحانه وتعالى، وهو المختار عند أهل هذا الفن وعلى رأسهم الإمام أبو العباس المرسي كما نقله ابن عطاء الله السكندري في كتابه "لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن الشاذلي" إنتهى بتصرف.

قال أبو الفتح البستي رَحِمَهُ اللهُ:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا

جَهْلًا وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ

وَلَسْتُ أَنَحِلُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فِتْيَ

صَافِي فَصُوفِي حَتَّى سُمِّي الصُّوفِي

وقال ابن الحاج المالكي في التصوف:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرَقُّعُهُ

وَلَا بُكَّاءُؤُكَ إِنْ غَنَى الْمُعْتُونَا

وَلَا صِيَاحُ وَلَا رَقْصٌ وَلَا طَرْبُ

وَلَا اخْتِطَاؤٌ كَأَنْ قَدِ صِرْتَ مَجْنُونَا

بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلَا كَدَرٍ

وَتَتَّبِعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَا

وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لِلَّهِ مُكْتَتِبًا

عَلَى ذُنُوبِكَ طُورَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

- قلت: وكل ما سبق يصح أن يطلق على الصوفية، أما الصوفي فهو من لبس الصوف، لأنه شعارهم وديارهم، وهو ما عليه شاذلية المغرب وتونس والجزائر حتى اليوم، وأول من تميز به من الصحابة سيدنا علي عليه السلام، ومن التابعين أويس القرني والحسن البصري رضي الله عنهما وعن الثاني اشتهر وانتشر، وأما نسبه لبني صوفة فهو صحيح أيضاً لأن فيه التسليم المطلق للخالق واسقاط التدبير للقادر، لأن الصوفة يحركها الهواء كيفما شاء ولا مشيئة لها وبهذا المعنى هو حال الصوفية، وأما نسبه لأهل الصفة فهو أيضاً صحيح لأنهم أناس تجردوا لذكر الله والطاعة فقط ومدحهم القرآن وأحبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان يبالي في مودتهم ومجالستهم والتحريض على حبهم، ومن قال إنه من الصفاء فهو صحيح لأنه يُصفي القلب من كدرات النفس: كالغل والحقد والحسد والغش وحب الشاء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن ما استقر في القلب لا بد وأن يظهر على الجوارح، وهو المطلوب في علم التصوف بأن يكون هناك تطابق بين الظاهر والباطن.

وبكل هذه المعاني السالفة الذكر يتحقق معنى التصوف وبه نقول
وعليه نسير وعنه ندافع.

ومن أجمل ما قيل قول سيد الطائفة الإمام الجنيد: "الصوفي كالأرض
يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا المليح". وقال أيضا: "الصوفي
كالأرض يطأها البر والفاجر وكالسماء يظل كل شيء وكالمطر يسقي كل شيء"
إهـ.



ما لا يستغني عنه المُريد فصل في صحبة الشيخ والأخ الصّالح

اعلم أيها المرید أن أصل الطريق والوصول فيها إلى الله متوقف عند أهل الطريق على صحبة الشيخ العالم الكامل المرید، الذي تَخَلَّصَ من رعونة نفسه، واكتسب من العلوم ما يكتفي به، وَعَرَفَ مسالك الحياة مما تحصّل عليه من خبرة وتجارب تلقاها وتيقنها من أسياده الذين سبقوه وخبروه واختبروه فأذنوا له بالتلقين، وشهدوا له بالعلم والمعرفة بعد أن سَبَرُوا آراءه، وتمعنوا أفعاله وأقواله، وشاهدوا بأَمِّ أعينهم أحواله، وتدافعوه بينهم إلى أن نضج واستوى، وذلك منهج الكُمَّل من أهل الله، وما كان الأولياء أولياء والعارفون عارفين إلا بعد أن لازموا العلماء الأخيار الأجلاء، الذين أوصلوهم إلى ما هم عليه، وذلك حقيقة الدين إذ لو كان أحد مستغنياً عن ذلك لكان سيدَ الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم مع أن المولى سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يغنيه، إلا أن حكمته اقتضت وجود تلك الأسوة، لكي لا يتجرأ عليها مدّع، ولا يستغني عنها طالبٌ صادقٌ يريد الوصول إلى مرضاة مولاه، وما ذلك إلا بالعلم والقول والعمل والإكثار من الذكر في كل الأوقات، إما بالقول وإما بالتفكير، وكل ذلك ليس بكائن على الوجه المرضي إلا بصحبة الشيخ، لما ثبت أن سيدنا جبريل عليه السلام

جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) رواه مسلم، ولقول المولى سبحانه وتعالى للسيدة مريم عليها السلام: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْحٍ النَّخْلَةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۗ﴾ ﴿٢٥﴾ فَكُلِّي وَاشْرَبِي ﴿٢٥﴾ مريم: ٢٥-٢٦، والمولى سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يسقط عليها رطباً جنياً من غير سبب ولا عمل، فالشيخ بهذا المعنى هو سبب للوصول، مثله مثل الطيب الحاذق بالنسبة للمريض، لأن المريض إذا ترك تزداد علته كل يوم والطيب يداوي تلك العلة حسب حاجة المريض، كذلك صحبة الشيخ المربي يوجه ويصوب ويصحح ما عليه المرید من تغير الأحوال مع تغير الأزمان، فإن لم يكن نفعٌ من الطيب للمريض فلا حاجة للطيب، وكذلك الشيخ المربي فإن لم يكن يؤثر في تربية المرید فلا حاجة له.

وما أجمل قول أبي منصور الثعالبي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّاهُ أَوْحَىٰ لِمَرِيْمَ
 وَهَزَىٰ إِلَيْكَ النَّخْلَ تَسْقُطُ الرُّطْبُ
 وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزَّهَا
 جَنَّتُهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ

ولا يُعترض علينا بقول الأدياء أن الشيخ غير موجود اليوم، لأن ذلك يتنافى كلياً مع الدين الحق، وإن كان قد قل وجود مثل هذا النوع من الشيوخ، والسبب فيه رقة الدين بوجه عام كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم، وإيجاد الشيخ هو من شأن المرید في البحث عنه والوصول إليه، وهو موجود وكل زمن يقاس بزمنه، فلا يقاس اليوم على الأمس ولا القادم على الحاضر، ولكل زمن مُسلكٌ يتناسب مع الزمن الذي هو فيه.

وكذلك صحبة الأخ الصالح الذي تأنس وتأوي إليه، ويعضدك وتركنُ عليه

في شأنك كله وهو كذلك بالنسبة إليك، وبهذا يكمل لك الاستغناء عن الآخرين الذين يحبطونك ويعوقونك عن العزائم، ويزينون لك الركون إلى الدنيا وأهلها، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: ٦٧، وعن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَتَاكَرَّ مِنْهَا اخْتَلَفَ) "رواه البخاري"، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ) "رواه أبو داود والترمذي"، فصحبة الأخ الصالح مثل

الدواء النَّاجِعُ كلما احتاج إليه استعمله، وإن لم يكن الدواء ناجعاً ومؤثراً
فلاستغناء عنه لازم، لأن ضرره متحتم.
قال الإمام علي عليه السلام⁽¹⁾:

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقُّ مَن كَانَ مَعَكَ
وَمَن يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَن إِذَا رَيْتَهُ الزَّمَانَ صَدَعَكَ
شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ

وما أجمل قول طرفة بن العبد:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَأَلُ عَنِ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وهذا كله محببٌ مرغوب فيه بل واجبٌ مطلوب عند أهل الطريق، لأن
الله أجرى العادة اختياراً منه أن الطبع من الطبع يسرق، فارغب إلى من هو
أعلى مكانة منك في الدين والعلم والعمل حتى توافقه في طبعه وطباعه،
وارفع من هو دونك حتى يوافقك فيما عندك، وهذه سنة الحياة عند هؤلاء

(1) دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم (من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) تأليف
قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي الشافعي.

القوم، ودونها لا تصلح دعوى طريق ولا ينفع شيخ ولا صديق، قال الشيخ
محمد الحراق:

وَدَاوِمُ عَلَيَّ ذِكْرُ الْغَنِيِّ حَقِيقَةً

تَكُنْ دَاغِيًّا فَالطَّبْعُ لِلطَّبْعِ يَسْرِقُ

وقال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد
المعين على الضروري من علوم الدين":

يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكِ

يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهْمَةَ

يُذَكِّرُهُ اللَّوَّاهَ إِذَا رَأَاهُ

وَيُوصِيهِ لُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلَاهُ



فصل في الوفاء والبرور

ينبغي على المريد أن يكون وفيّاً لنقل ما تعلم من العلوم الشرعية إلى غيره من طلبة العلم والعوام، وأن يكون مطيعاً لمن سهر على تعليمه ومتأدباً في حضرته، ساتراً له فيما يظنه أنه عيباً من عيوبه، باراً له في غيبته مثل بروره لوالديه في النسب بل أكثر من ذلك، لأن الذي علمه أحكام الشرع هو الذي علمه أحكام البرور بالوالدين من النسب، ولأن مشايخ الإنسان آباؤه في الدين ووصلة بينه وبين رب العالمين، فهو مأمور بذكر مناقبهم والذب عنهم، والتجاوز عن زلاتهم وستر عوراتهم وإقالة عثراتهم بصفة عامة، والكرماء الأجلاء منهم بصفة خاصة، مع كثرة الدعاء لهم في السر والعلن، ومن أهم الوفاء والبرور الإكثار من ذكر الذين علموك وأرشدوك وأخذوا بيدك إلى الله، وكذلك والديك وأصحاب الحقوق والفضل عليك، لأن تعظيمك لهم ووفائك لما هم عليه من الحق هو في الحقيقة عائدٌ عليك، وذلك لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثْرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ) رواه أحمد" هذا في العموم فما بالك بمن سهر على تربيتك وتعليمك إهـ.

وأن يكون المرید صابراً ومحتسباً غير ضجر ولا متذمر من معلمه إذا اشتد عليه لأن الصبر على العلم مآله الرفعة والرضا لحديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُجَلِّ كَبِيرَنَا، وَيَفِ لِعَالِمِنَا) "رواه البزار"، ولأن العلماء العاملين ورثة الأنبياء والمرسلين، وقد جاء مدحهم متواتراً كتاباً وسنةً، وكذلك التحريض على اتباعهم والتحذير من إذائهم، وقد جاء الوعيد في ذلك منبهاً ومحذراً من آذاهم بالانتقام لما جاء عن أبي هريرة في الحديث القدسي وفيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله تعالى قال: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) "رواه البخاري"، وهم الذين يبقى ذكرهم بعد موتهم، قال الإمام علي عليه السلام:

مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَإِنَّهُمْ

عَلَى الْهُدَى لَمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءُ

وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ

وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَغْدَاءُ

فَفَزِعْ بِلِمِّ تَعِيشِ حَيًّا بِهِ أَبَدًا

النَّاسُ مَوْتِي وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) "رواه مسلم"، وعن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيَتَّبِعُ بِهَا صَدَائِقَ خَدِيجَةَ فَيُهْدِيهَا لَهُنَّ) "رواه الترمذي".

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى:

إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ لَيْسَ يَجْرِي

عَلَيْهِ مِنْ خِصَالٍ غَيْرُ عَشْرِ

عُلُومٍ بَثَّةٍ أَوْ دُعَاءِ نَجْوِي

وَعَشْرِ نَخْلٍ وَالصَّدَقَاتِ تَجْرِي

وَرَأْيُهُ مُصْحَفٍ وَرَبِّاطُ ثَغْرِي

وَحَفْرُ الْبُئْرِ أَوْ إِجْرَاءُ نَهْرٍ
 وَبَيْتٌ لِلْغَرِيِّ بِبَنَاءِ يَأْوِي
 إِلَيْهِ أَوْ بِنَاءِ مَحَلٍّ ذِكْرُ
 وَتَعْلِيمٌ لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ
 فَخُذْهَا مِنْ أَحَادِيثَ بِمَحْضٍ

وبناءً على ما سبق يبقى البرور والوفاء متوارثاً وإن كان قليلاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو واجب وجوباً عينياً لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها السابق وقال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ "هود: 40"، وإذا ما رأيت منه ما يخالف الشرع ظاهراً فدعه وتمسك بالشرع لأن به النجاة، مع وجوب مراجعة المرید لشيخه ما دام حياً، وفي حال مماته لا بد للمرید إن كان كفواً أن يبين ذلك الخطأ ويوضحه بطريقة النقد العلمي، قال الإمام الشاطبي رحمه الله في منظومته "حز الأمانى ووجه التهاني":

وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَادْرِكْهُ بِفَضْلَةٍ

مِنَ الْحَلْمِ وَلْيُضْلِحْهُ مَنْ جَادَ مَقُولًا

وَقُلْ صَادِقًا لَوْلَا الْوَيْثَامُ وَرَوْحُهُ

لَطَّاحِ الْأَنْثَامِ الْكُلِّ فِي الْخُلْفِ وَالْقِيَالَا

وعدم الخروج في كل ذلك عن الأدب، مع الاستغفار والترحم على الشيخ
وحفظ وده، ولا يجعل ذلك مدخلاً للطعن والتجريح فيه، مع العلم أن ذلك
كله لا يجعل من المريد خارجاً عن الوفاء والبرور، بل هو عين الوفاء
والبرور. اهـ.



فصل في التوبة النصوح

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿التَّحْرِيم: ٨.﴾

إعلم أيها المرید أن الأصل في التوبة اجتناب كل معصية، ظاهرة كانت أو باطنة، حسية كانت أو معنوية، والامتثال لكل أمرٍ ظاهرًا كان أو باطنًا، حسيًا كان أو معنويًا، وهي واجبة وجوب الفرائض على الأعيان، من كل ذنب كبيراً كان أو صغيراً، كان حقاً لله تعالى أو لآدي أو لهما، معلوماً كان أو مجهولاً.

فتجب التوبة من الذنب المعلوم تفصيلاً، ومن المجهول إجمالاً، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿الزمر: ٥٣.﴾

وهي واجبة على الفور، فمن أخرها فتجب التوبة عن تأخيرها، فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) رواه أحمد.

ومن شروط التوبة: الإقلاع عن الذنب فوراً، والندم عليه، وأن لا يعودُ إليه، وعدم الإصرار عليه، ورد المظالم، وتمكين نفسه من المجني عليه أو من أوليائه وعلى وفق جنايته، هذا إن كان حقاً لأدميٍّ، أمّا إن كان لله فيجب عليه أن يصحح ما هو عليه مثل قضاء الصلوات إن كان تاركاً لها، والصوم إن كان تاركاً له، وإخراج الزكاة إن كان تاركاً لها، مع الشروط السابقة الذكر، فإن تاب من الذنب وفق الشروط السابقة ولم يُبرئ ذمته فالتوبة ناقصة إن كانت في حق الأدمي، أو في حق الله فيجب عليه الإبراء، وإن مات على ذلك فأمره مفوض لله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء: ٤٨.

قال الإمام برهان الدين إبراهيم اللقاني المالكي المصري في منظومته "جوهرة التوحيد":

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ
فَأَمْرُهُ مَفْرُوضٌ لِرَبِّهِ

وإن عاد إلى الذنب مرّة أخرى فتجب عليه التوبة بنفس الشروط السالفة الذكر، فعن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَا أَصْرَمَ مِنْ اسْتَعْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً) (رواه أبو داود)، والاستغفار على مراتب، إمّا من ذنب محقق الوقوع والعين

من كبيرة مثل الغيبة والنميمة وشهادة الزور وشرب الخمر والسرقة وما سواها من الكبائر أو الصغائر، وإما محقق الوقوع ومجهول العين كأن تيقن أنه فعل إثماً ولكن نسي عينه، فيلزم منه الاستغفار أيضاً، وإما لطلب رفع الدرجة عند المولى سبحانه وتعالى وهو فعل الحريصين، وإما عن شكر سابق وهو استغفار الأنبياء ومن سار على نهجهم من الأولياء، وهاتان المرتبتان الأخيرتان بينهما مراتب تقصُرُ عنها همم العوام، ومما يجب أن يُعلمَ أن التوبة والاستغفار لا يلزمان عن ذنب، وذلك لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى قام حتى تفتّر رجلاه قالت السيدة عائشة يا رسول الله أتصنع هذا وقد عُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: (يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) "رواه مسلم"، قال الولي الصالح أبو مدين الغوث في قصيدته: "ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا":

وَحُطَّ رَأْسُكَ وَاسْتَعْفِرَ رِبِّي لَسَبَبٍ

وَقِفْ عَلَى قَدَمِ الْإِنْصَافِ مُعْتَذِرًا

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته: "المرشد

المعين على الضروري من علوم الدين":

وَتَوْبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يُجْتَرَمُ

تَجِبُ فَوْرًا مُطْلَقًا وَهِيَ النَّدَمُ

بَشْرُطِ الْإِقْتِرَاعِ وَنَفِي الْإِضْرَارِ
وَلَيْتَ لَأَلْفِ مُمَكِّنًا إِذَا اسْتَعْفَى
وَحَاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنَابُ وَامْتِنَالُ
فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ بِذَا تُنَالُ
فَجَاءَتْ الْأَقْسَامُ حَقًّا أَرْبَعَهُ
وَهِيَ لِلسُّبُلِ الْمُنْفَعَةِ



فصل في المراقبة والمحاسبة

ينبغي للمريد أن يُفْرِغَ قلبه ساعة لمسائلة النفس، ويقول لها ما لي بضاعة إلا العمر فإن فَنِيَّ فَنَى رأس المال ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، فإياكي إياكي أن تُضيعيه، ثم يستأنف لها وصية أخرى لاسيما في أعضائه السبعة اللسان والعين والأذن والبطن والفرج واليد والرجل قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٦، ولحديث شداد بن أوس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ) "رواه الترمذي"، فإذا أوصى نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا مراقبتها عند تطبيق ما أوصاها لأنها إن تُرِكَت طغت وفسدت، ويجتهد أن يكون ذلك في أول النهار وآخره لأن في أول النهار يكون بدأ العمل فيحذرهما من مغبة الخسران، وفي آخر النهار يكون الانتهاء من العمل مع السكون والراحة فيتفقدتها على ما أعطت وربحت وقصرت وخسرت، كالتاجر في الدنيا يختبر رأس المال فإن وجد فضلاً استوفاه وحمد وشكر، وإن وجد خسراناً تداركه بإصلاح الخلل في المستقبل، كذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه كثرة المعاصي، فيحاسبها على الفرائض

أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله عليها، ثم رغبها وحرصها على النوافل مطلقاً في ليله ونهاره، لما في الحديث القدسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله قال: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) رواه البخاري، وإن ارتكب معصيةً عاتبها وساءلها وتاب منها على الفور كي لا تأنس بها ويصعب عليه بعد ذلك فظامها، قال الإمام البوصيري المصري في البردة:

وَالنَّفْسُ كَالظَّفْرِ لَإِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى

حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمَهُ يَنْفَطِمُ

ويزن كل حركاته وسكناته بالقسطاس المستقيم وهو الشرع الكريم، وذلك بأن يجعل على قلبه الذي هو أمير جسده حاجباً فيما يريد فعله أو تركه، فما أمره الشرع بفعله فعله وما أمره بتركه تركه وما كان من

المشبهات يتوقف فيه، لأن ذلك عين التقوى لحديث النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَّاعٍ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه البخاري ومسلم، وما سُمِّي القلب قلباً إلا من كثرة تقلبه وصدق من قال:

مَا سُمِّي الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ

فَاخْذَرِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وهو كالأمير بالنسبة لبقية الجسد، وإنما يزن الخاطر بالشرع لأن الأحكام لا تعرف إلا منه، وحينها يوصف بالاستقامة.

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد
المعين على الضروري من علوم الدين":

يُحَسِّبُ النَّفْسَ عَلَى الْأَنْفَاسِ

وَيَوزِنُ الْخَاطِرَ بِالْقِسْطِ

وَيُخَفِّضُ الْمَفْظُ رُوضَ رَأْسِ الْمَالِ

وَالنَّفْسَ لِرَبِّجْهٍ بِهِ يُوَالِي



فصل في صدق المعاملة

إعلم أيها المرید السالك أن قوام الحياة مبني على صدق المعاملات لأن بها تسعد المجتمعات وتعم الطمأنينة ويكثر الخير فيبارك الله بالعباد والبلاد، وعليه يجب أن يكون المرید عمله خالصاً لله سبحانه وتعالى من غير رياء ولا سمعة، وحقيقته أن يتساوى سره مع علانيته عند فعل الطاعة وترك المعصية، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البينة: ٥، ويدخل في صدق المعاملة إخلاص العبد فيما كان بينه وبين الله من عبادات كالصلاة والصوم، وما بين العبد وأخيه في المعاملات وصدق النصح وعدم الغش.

ومن الرياء بين العبد وربّه أن يكثر من النوافل والطاعات بين الناس وينشط غاية النشاط وإذا اختلى بنفسه لا يفعل من ذلك شيئاً، وهذا هو عين الرياء، وأمّا ما كان من قبيل المعاملات بينه وبين الناس فيظهر الإكرام والإنفاق لكي يمدحه الناس على فعله، وكل هذه الأعمال هي من الرياء، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ البقرة: ٢٦٤، وفي الحديث عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا الشَّرْكَ

الأصغر؟ قال: (الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ إِذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟) رواه أحمد، وغير ذلك من الصفات المذمومة لحديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَّا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) رواه البخاري ومسلم.

وعلى المرء أن يتعاطى أسباب الرزق والجد والاجتهاد في تحصيل منافعه الدنيوية، وأن يكون في كل ذلك متوكلاً على الله قانعاً بما قدره الله له، مسلماً لقضائه في كل أحواله إن أعطاه وإن منعه وذلك لحديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) رواه أحمد والبيهقي والحاكم، ولأن القناعة من أغنى غنى النفس.

ومن صدق المعاملة عدم شهادة الزور لحديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ

الْكَبَائِرِ) قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ) "رواه البخاري مسلم"،
 ولحديث أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
 (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ، وَعَنْ
 عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ
 فِيمَا أَبْلَاهُ) "رواه الترمذي".

ومن صدق المعاملة أن يحسن التعامل مع الناس في كل مرافق الحياة من
 بيع وشراء وعدم تطفيف في الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾
 المطففين:١، وعدم غش في البضاعة أيًا كان نوعها، لعموم حديث أبي هريرة أن
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّنَا) "رواه مسلم".
 ومن صدق المعاملة أن يحسن مجاورة الجار بالصبر على أذاه، ومقابلة
 السيئة بالحسنة وإسداء المعروف له، لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها
 وعن أبيها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (مَا
 زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيُورَثَنِي) "رواه مسلم".
 ومن صدق المعاملة أن يعامل الوالدين بإحسان ويبرهما قال تعالى:
 ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإسراء: ٢٣.

ومن صدق المعاملة أن يحسن تربية الأولاد لاسيما قبل البلوغ والنصح لهم بعده، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) "رواه أبو داود".

ومن صدق المعاملة التلطف بالزوجة وحسن معاشرتها والصبر على أذاها قال تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ البقرة: ٢٣١، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ طه: ١٣٢، وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضَلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضَّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) "رواه البخاري"، وهو من علامة كرم الأخلاق وشهامتها لحديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي، وَمَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَئِيمٌ) "رواه ابن عساكر في الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين".

ومن صدق المعاملة إكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وحب الفقراء والمساكين، ومودة الأغنياء المتواضعين، لحديث أبي هريرة أن رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) رواه البخاري ومسلم، وكل ما سبق متوقف على صدق المعاملة، قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين":

يَضُدُّ شَاهِدُهُ فِي الْمُعَامَلَةِ

يَرْضَى بِمَا قَدَّرَهُ الْإِلَهُ لَهُ

وقال أيضاً:

كَغَيْبَةِ نَمِيمَةٍ زُورٍ كَغَيْبَةِ

لِسَانِهِ أَحْرَى بِتَرْكِ مَا جَلِبُ



فصل في العلم قبل القول والعمل

ينبغي للمريد أن لا يُقدِّم على عمل في شأنه كله صغيراً كان أو كبيراً جليلاً أو حقيراً حتى يعلم حكم الله فيه، فيكون بذلك راضياً مرضياً مُسَدِّداً مؤيداً مقروناً بالتوفيق في الغالب ومحفوظاً برعاية الله، مأجوراً في الدنيا على احتسابه وصبره، والآخرة خير وأبقى، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر: ٧، وقوله تعالى: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأنبياء: ٧، وعن أبي الدرداء من حديث طويل وفيه: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا وَأُورَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) رواه ابن حبان" وعن ابن عباس من حديث طويل وفيه: (أَوْلَمَ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ) رواه ابن ماجه"، والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة وكثيرة جداً، وقد أجمع أهل العلم قاطبةً أنه يَحْرُمُ على المرء أن يقدم على عمل أو قول لا يعرف حكم الله فيه ولو أصاب، وقد نقل هذا الإجماع الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في "كتاب الرسالة"، وقد بَوَّبَ له البخاري باب العلم قبل القول والعمل، وأهل الطريق أولى بذلك، ولا ينكر ذلك الإجماع إلا معاند جاحد لدود، وبناءً عليه يجب

على التاجر أن يتعلم أحكام التجارة، والمتزوج أن يتعلم أحكام الزواج، والمجاهد أن يتعلم أحكام الجهاد، وهكذا في الباقي مثل المزارعة والمساقاة والمواريث وغيرها من الأحكام، أما ضروريات الدين من الإيمان والإسلام والصلاة والصوم والحج والزكاة والإحسان فالحد الأدنى فيه فرض عينٍ على العامة قبل العلماء، وهذا ما نعاني منه اليوم عند الأذعياء، لحديث سيدنا جبريل السابق وحديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ) رواه البخاري ومسلم، ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى) رواه البخاري ومسلم، والحديث متواتر من جحد معناه كفر.

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد
المعين على الضروري من علوم الدين":

وَيُوقِفُ الْأُمُورَ حَتَّى يَعْلَمَ مَا
مَا اللَّهُ فِيهِنَّ بِهِ قَدْ حَكَّمَا



فصل في تطهير القلب

إعلم أيها المرید أن إصلاح القلب بتقويم سلوكه وتطهيره من الغلّ والحسد والعُجب والرياء والكبر والأدران المتعلقة به فرض عين على العباد، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٩-١٠، ولأنّه صلى الله عليه وآله وسلم وهو المعصوم من الكبائر وصغائر الخسّة قبل النبوة وبعدها قد جاءه سيدنا جبريل عليه السلام: (فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَعَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ فَعَسَلَهُ مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ بِيَدِهِ حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ ثُمَّ أَتَى بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مُحْشُوءًا إِيْمَانًا وَحِكْمَةً فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَعَادِيْدَهُ) "رواه البخاري ومسلم".

ورحم الله الإمام الشاطبي حيث يقول في منظومته "حرز الأمانى ووجه التهاني":

وَعِشْ سَالِمًا صَدْرًا وَعَنْ غِيْبَةٍ فَعِشْ
تُحْضِرُ حِظَّارَ الْقُدْسِ أَنْقَى مُغَسَّالًا
أي عش سالم الصدر نظيف القلب عن الغشّ والغلّ وسائر أمراض القلب المعنوية، والتي إذا استمرت تأتي بالأمراض الحسيّة مثل الغيبة

والنميمة والبهتان وشهادة الزور والكذب والإفك، ولا تحضر مواطن الغيبة، ولا تشارك المغتابين إن أجبرت على حضور مجالسهم؛ لكي يجعلك المولى في حظار القدس في الجنة مع عباده الأبرار مُنْتَقَى من الذنوب مطهراً من العيوب.

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين":
يُطَهَّرُ الْقَلْبَ مِنَ الرَّيِّاءِ

وَحَسَبَ عَجْبًا وَكُلَّ دَاءِ

ذلك كله لأن القلب مملكة البدن وما وقر فيه ظهر على بقيته قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، ومتعلقات القلب من خيرٍ وشرٍ كثيرةٌ جداً، والعمل على إصلاح القلب ديدن السادة الصوفية كما مر بيانه في

باب المراقبة والمحاسبة، ويصعب حصر الكلام فيه، وما ذكرناه هنا وفي
فصل المراقبة والمحاسبة فيه كفاية لذوي الفضل والعناية فتدبره جيداً.



فصل في الذكر

يجب على المريد أن يعلم أن الذكر هو أهم ما يعتني به المؤمن بعد تحصيله لضروريات الدين، ومعنى الذكر أوسع مما يتصوره المرء منا فهو كل الدين إذ كل عمل فيه قربة إلى الله من فعل أو ترك يصح أن يقال عنه ذكر، ولكن المقصود هنا هو الذكر باللسان والقلب عند تحرك الأعضاء والأركان وعند سكونها وذلك في كل حالاتها، وبهذا المعنى هو قبلة الذاكرين ولاسيما السادة الصوفية، وقد جاء فيه ما تواتر كتاباً وسنةً، وإذا تتبعنا ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله واجتهاد العلماء العاملين في ترتيب الأوراد لا ولن تجد ما يساوي ذلك من كل العلوم، إذ هو بحر شاطئه معلوم، وغوره عن العقول معدوم، ونكتفي ببعض الآيات الجامعة والأحاديث الماتعة المانعة التي تفيد وتذكر الذاكرين بمكانتهم عند رب العالمين وقربهم من سيد الأولين والآخرين قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران: ١٩١، وفي هذه الآية دلالة واضحة صريحة اللفظ والمعنى على أن الذكر يصح من الذاكر على أي حال من الأحوال التي يكون عليها، وهذا مما لا يصح في غالب العبادات الأخرى إلا بشروط مخصوصة ومعلومة، وبكيفية مدروسة مضبوطة، وفي الآية أيضاً ما يميز أهل الله عن غيرهم، وهو عمق النظر والتفكير في مخلوقات الله التي تؤدي

إلى جعل اليقين حاضراً دائماً بأن خالق هذه المخلوقات لا يشبهها ولا بوجه من الوجوه لأنه خالقها، ولهذا جاءت الآية مصرحة بالتفكر في خلق السموات والأرض وهو أعلى درجات الذكر على الإطلاق، ومن أجل ذلك كان هذا النوع من الذاكرين أكثر الناس طمأنينة على الرغم من كثرة الابتلاءات الواقعة عليهم، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرَّعد: ٢٨، أما الذكر باللسان والأركان فقد جاء فيه قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١-٤٢، وكذلك جاء في السنة الشريفة ما يدل على كثرة الذكر وأن الذاكرين يمتازون عن غيرهم بكثير من الفضائل إذا ما واطبوا على ذلك من غير انقطاع ولا سامةٍ ولا كسل ولا ملل، كما قال معاذ بن جبل: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ غَدًا فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) رواه أحمد، ومثله عن أبي الدرداء رواه ابن ماجه وقال الحاكم في المستدرک هذا حديث صحيح الإسناد، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي

يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" رواه البخاري، ومعنى هذه الأحاديث إنما هو المواظبة على الذكر وعدم الانقطاع عنه حتى يلقي الله، وقد سبق ذكر الحديث السابق في فصل الوفاء والبرور وفصل المراقبة والمحاسبة ولأهميته يُستدل به في كل مراتب العبادات والعابدين والذكر والذاكرين.

والخلاصة في هذا الفصل كله الإشارة إلى حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى يقول: (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ)" رواه البخاري في تاريخه والبيهقي في شعب الإيمان" وهذا إشارة إلى مكانة الذكر والذاكر، أما الكلام على أنواع الذكر مثل لا إله إلا الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالكلام عنه يطول ويصعب حصره ومكانه في المطولات، وقد أُلْفِت فيه مؤلفات كثيرة وكثيرة جداً، منها ما هو مطول ومتوسط ومختصر، ولكل مؤلفٍ وعالم له فيها اجتهادٌ خاص، وكلها دالة على المراد، وقد نقلنا نُتفاً منها برأس القلم في كتابنا "الدرر النقية بتهديب أورد الطريقة الشاذلية" أو المسمى "ادخار الزاد من بعض الأورد" فراجع إن شئت فهو لطيف في بابه.

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد
المعين على الضروري من علوم الدين":

وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ بِصَفْوِ لُبِّهِ

وَالْعَزْوَءُ فِي جَمِيعِ ذَا بَرِّهِ

يُجَاهِدُ التَّفَسُّسَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

وَيَتَحَوَّلُ بِمَقَامَاتِ الْيَقِينِ



فصل فی الحمد والشکر

إعلم أيها المرید أن الإكثار من الحمد والشکر هما وسیلة اطمئنان النفس البشرية وسكون حالها.

والحمد لله: (لغةً): الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل الاختياري لما أنعم الله علينا.

و(شرعاً): إن الحمد ليس عبارة عن قول القائل الحمد لله، بل هو فعلٌ يُشعرُ بتعظيم المُنعم بسبب كونه مُنعماً، وذلك إما أن يكون من فعل القلب وهو اتصافه بصفات الكمال والجلال، أو بفعل اللسان وهو ذكر ما يدل عليه بتعظيم وإجلال، أو فعل الجوارح وهو أن يضعها ويستعملها في مرضاة الله على حسب كل جارحة، قال الإمام الطبري في تفسير سورة الفاتحة: (الحمد لله): "ثناء أثنى به الله على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه قال قولوا الحمد لله رب العالمين"، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ)" رواه النسائي وابن حبان والحديث حسن"، ومعناه محقوق من الخير والبركة، وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ)" رواه ابن ماجه"، وكذلك كل عمل يُختتم على معنى الكمال لا بد أن

يكون بالحمد قولاً وحقيقةً، وعلى هذا المعنى فالحمد يكون قولاً باللسان واعتقاداً بالجنان وعملاً بالأركان قال تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس: ١٠١، فالمرء يحمد الله على كل نعمة، ويحمده على درء كل نقمة، ويحمده على ما نزل به وما دُفِع عنه، وبهذا يكون الحمد شاملاً للسراء والضراء، وعند تحقق حقيقة الحمد في المرید يكون قد وصل إلى باب الرجاء والأمل عند الله، ولا يسبقه إليه إلا من كان يقينه في حمد الله أقوى مما جاء به الأول وهكذا في الباقي قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفِسُونَ﴾ المطففين: ٢٦.

أما الشكر فهو كما قال الغزالي في إحيائه: "علمٌ وحالٌ وعملٌ، فالعلم هو الأصل الذي يورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر، فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه".
 فالشكر شكرٌ بالقلب وهو اعتقاد أن النعم كلها من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل: ٥٣، وشكرٌ باللسان وهو الثناء على الله وإظهار نعمه على عباده قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١، ومنه

شكر لمن كان سبباً في إظهار نعم الله عليك، كما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ) "رواه أحمد"، وشكرٌ يكون بسائر الجوارح وهو أن يعمل بها العمل الصالح قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ سبأ: ١٣، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لِينِ شُكْرِكُمْ لَا زِيدَنَّاكُمْ﴾ إبراهيم: ٧، ونبه سبحانه الناس من ترك الشكر ونكران النعم وجحودها فقال في محكم تنزيله: ﴿أَفَنِعْمَةً أَلَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ التحل: ٧١، قال ابن عطاء الله في حكمه العطائية: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقلها".

- قلت: وإن أردت أن يفتح لك باب الشكر فعليك بعلاج قلبك بأن تذكره بنعم المولى سبحانه وتعالى عليك، وأن نعمه سابعة لا حصر لها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إبراهيم: ٣٤، ومن أعظمها نعمة الإيمان، وتستحضر فائدة الشكر أن معه تدوم النعم، مع ما فيك من نقص وقلة قدرك، ومن أنت حتى أهلك الله لخدمة دينه مع أن ألوفاً مؤلفة قد طردت عن بابه، وأن تنظر إلى من هو دونك لتعرف ما من الله به عليك من النعم، لما جاء عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ) "رواه مسلم"، وأما في معالي الأمور

وأسمائها فليُنظر المرء إلى من هو أعلى منه لا إلى من دونه لكي يدركه أو يساويه، قال أبو الفضل محمد بن الحسين المشهور بابن العميد:

مَنْ شَاءَ عَيْشاً هَنِئاً يَسْتَفِيدُ بِهِ
فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالاً
فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ فَوْقَهُ أَدْبَاباً
وَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ دُونَهُ مَالاً
قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيداً فَلَا تَكُنْ
عَلَى حَالَةٍ إِلَّا رَضِيَتْ بِدُونِهَا
وَمَنْ يُرِدِ الْأَعْلَى مِنَ الْعَيْشِ لَمْ يَزَلْ
حَزِيناً عَلَى الدُّنْيَا كَثِيرَ غُبُونِهَا
قال الإمام علي عليه السلام⁽¹⁾: "إن الجنة موصولة بالشكر، والشكر متعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العباد"، وقال عليه السلام: "العفة زينة الفقير، والشكر زينة الغني، والشكر والورع جنة".

(1) دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم (من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) تأليف قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي الشافعي.

* فائدة: اعلم أن بين الحمد والشكر عموم وخصوص، فكل حمدٍ شكر ولا عكس، لأن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة فتقول شكرت فلاناً لما أسدى إلي من خدمة أو عمل ولا تقول حمدته، أما الحمد فيكون بسبب وبلا سبب، وبهذا المعنى فهو أعم من الشكر، وأما عند أهل الطريق لا يكون المريد حامداً شاكراً على معنى الحقيقة إلا إذا ابتلي فصبر وإذا أُعطيَ فحمد وشكر، لحديث صهيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَّهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَّهُ) رواه مسلم، وذلك لا يكون إلا إذا أعطى من حرمته، وعفى عن ظلمه عند القدرة، ووصل من قطعته قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٤ وهكذا في الباقي، فيتحقق فيه معنى الإخلاص والتفاني والإيثار فتكون عزيمة دائماً حاضرةً خلافاً لمن هو دونه.

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين":

يُجَاهِدُ النَّفْسَ لِـرَبِّ الْعَالَمِينَ
وَيَتَحَلَّى بِمَقَامَاتِ الْيَقِينِ
خَوْفٌ، رَجَاءٌ، شُكْرٌ وَصَبْرٌ تَوْبَهُ
زُهْدٌ تَوَكُّلٌ رِضًا مَحَبَّةً



فصل في الرجاء والخوف

إعلم أيها المريد أن الخوف هو كما قاله الغزالي في إحيائه: عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقُّع وقوع المكروه في المستقبل بعد أن تاب منه، وهو معرفة العبد بتقصيره في حقوق ربه، ودواؤه بعد التوبة الزهْد ثم الصبر ثم كثرة الشكر والمبالغة في اجتناب المعاصي والسيئات، وإنه يكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور لأن الخوف سوط يسوق صاحبه كما أن الرجاء زمام يقود صاحبه كما تقاد الدابة، وعن الخوف يكون الحزن، وبهذا المعنى فهما متلازمان، والحزن مفتاح الندم، والندم باب التوبة، بل معظمها وقطبها الذي تدور عليه، وقد أشار إلى ذلك ابن عطاء الله في حكمه العطائية حيث قال: "إن أردت أن يفتح لك باب الحزن فانظر إلى موافقة النفس واتباعها المعاصي والشهوات وتقصيرها في العمل وإساءة الأدب ولا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مُقلق" انتهى بتصرف.

وثمره الخوف كما قال أبو علي الدقاق: "سببها كثرة الحزن حيث يقطع من طريق الله عز وجل في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين"، قال تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ففي هاتين الآيتين أمرٌ بالخوف

مشروط بالإيمان، فهو شرط وأداة شرط وجزاء شرط، ويوضحه ويبينه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ الرحمن: ٤٦، ومثله قوله تعالى: ﴿سَيَذَكَّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ الأعلى: ١٠، فجعل سبحانه وتعالى فضائل الأذكار مخصوصة بالخائفين وأكده بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١، وفي هذه الآية التصريح بأن الخائفين المكثرين من الخوف المبالغين بالالتجاء إلى الله تفضل عليهم بأن جعل لهم الجنة هي المأوى.

وأما الرجاء فهو ارتياح القلب وامتلاؤه بالطمأنينة حتى يحصل له الأُنس والتشوق؛ لانتظاره وترقبه لما هو محبوب عنده، وسببه المباشر العلم والعمل وعدم الركون إلى الراحة من أجل تحقق الرجاء لذا قال ابن عطاء الله في حكمه العطائية "الرجاء ما قارنه العمل في كل الأحوال وإلا فهو أمنية"، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ٢١٨، ونبه سبحانه الناس على ما يتوهمون أنه رجاء فذمهم لأنهم عولوا على محض تشوف الثواب والفتح والرجاء من غير تعاطٍ لأسبابه مع الركون إلى الراحة وتمنيهم على الله الأماني ظناً منهم أن ذلك هو الرجاء المأمور به فسماهم

ووسمهم بأنهم خَلَفَ والخَلْفُ من الناس كل ما هو رديء فقال تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِنْبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ الأعراف: ١٦٩، وعن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي) "رواه الترمذي"، والرجاء علم بأوامر الله ونواهيه وحال يتلبس به الراجي فيرتاح القلب لذلك، وعمل ينشأ بسبب الاجتهاد في الطاعات وكثرة فعل الخير، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠، وإن أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما أقامك فيه، ومن أحسن العمل وأخلص فيه أحسن الظن بالله "انتهى بتصرف.

واعلم أن الرجاء الصادق لا يتوقف على تحصيل جميع الأعمال الصالحة، وإلا لم يتصور وجوده بهذا المعنى من أكثر الخلق، مع أن أصل معناه وتحققه حاصل لأكثر أهل الله، لأن شُعبَ الخير كثيرة جداً، وطرق السعادة منتشرة ويصعب حصرها، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) "رواه مسلم".

قلت: إن أردت أن يُفتح لك باب الرجاء فانظر إلى ما منَّ به الله عليك من النعم الدنيوية من إيجاد وإمداد ودفع النقم الدنية وتحصينك مما يدور حولك من أهل الحسد والحقد، وعدم مجازاتك على سوء أدبك مع خالقك، ودفع المكاره عنك قليلها وجليلها، وتأيدك ونصرتك مع عدم استحقاقك لذلك إنما لحكمة هو يعلمها فيك، فعند ذلك تتبصر وتفهم حقيقة الرجاء إن كنت من أهله فتدبر إه.

وليُعلم أن تغليب الخوف هو الأفضل عند أهل التحقيق كما قاله الحسن البصري وتبعه عليه غالب أهل الله إلا عند الموت فتغليب الرجاء هو الأفضل وذلك كما قاله الشافعي رحمه الله تعالى:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَدَاهِي

جَعَلْتُ الرَّجَاءَ مِنِّي لِعَفْوِكَ سَلَامًا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَارَنْتُهُ

بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوِكَ أَعْظَمًا

ولما جاء عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قال الله تعالى: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى

مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ
اسْتَعْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي
لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لِأَنَّيُتُّكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" رواه الترمذي.

والمسألة يطول الكلام عليها وقول الحسن البصري والشافعي خلاصته أن
الخوف مطلوب عند القوة والفتوة وملازمة الشخص لطول الأمل، والرجاء
مطلوب عند الضعف والمرض وقرب الأجل لأن فيه حسن الظن بالله، كما
جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم: يقول الله تعالى: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ
ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ
مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ
إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمِينِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً) رواه البخاري ومسلم.

قال الإمام علي عليه السلام⁽¹⁾: "إِلَهِي أَرْجُوكَ رَجَاءً مِنْ يَخَافُكَ، وَأَخَافُكَ
خَوْفَ مَنْ يَرْجُو ثَوَابَكَ، فَقِنِي بِالْخَوْفِ شَرَّ مَا أَحْذَرُ، وَأَعْطِنِي بِالرَّجَاءِ خَيْرَ مَا
أَحْذَرُ"، وَقَالَ أَيْضاً: "إِلَهِي مَدَدْتُ إِلَيْكَ يَدًا بِالذُّنُوبِ مَأْسُورَةً، وَعَيْنًا بِالرَّجَاءِ

(1) دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم (من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) تأليف
قاضي القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي الشافعي.

مذرورة"، وسئل عليه السلام أي الناس خير عند الله قال: "أخوفهم لله
وأصبرهم على التقوى وأزهدهم في الدنيا".

قال الإمام عبد الواحد بن عاشر المالكي الفاسي في منظومته "المرشد
المعين على الضروري من علوم الدين":

يُجَاهِدُ النَّفْسَ لِـرَبِّ الْعَالَمِينَ

وَيَتَحَرَّى بِمَقَامَاتِ الْيَقِينِ

خَوْفٌ رَجَّأ شُكْرٌ وَصَبْرٌ تَوَبَّهْ

زُهْدٌ تَوَكَّلْ رِضًا مَحَبَّةً



خَاتِمَةٌ

باب فی خصوصیة ذکر (لا إله إلا الله)
واسم الله المفرد (اللَّهُ)

و(الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)

ينبغي على المرید ألا يضع من أوقاته شيئاً، فيُعين لكل وقت عملاً يخصه
مما يعود عليه نفعاً ديناً ودنياً، فالعبد لا خلاف أنه ذاهب لملاقاة ربه،
فأردت في هذا الباب الإشارة إلى ما يشغل به العبد جل وقته ليكون راضياً
مرضياً، مع مراعاة الاختصار والمحافظة على الأصل، فالأدلة في هذا الباب
يصعب حصرها فاكثفت بذكر ما يحتاج إليه المبتدي، وما لا يستغني عنه
المنتهي، فأقول بالله التوفيق:

فصل في ذكر (لا إله إلا الله)

قال تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ محمد: ١٩، وقال تعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه: ١٤، وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران: ١٨، وجاء في الحديث المسلسل بالآل عليهم السلام عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (سَمِعْتُ جِبْرِيلَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ: أَنَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، يَا عِبَادِي فَمَنْ جَاءَ مِنْكُمْ بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي) رواه ابن عساکر، ولما جاء عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فِإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَيَّ اللَّهُ) رواه البخاري ومسلم والحديث متواتر، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ) رواه الترمذي، وعن شداد بن أوس قال: إِنَّا لَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: (هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟ يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ، فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ الْبَابِ وَقَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُمَّ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، ثُمَّ قَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ) رواه أحمد والحاكم والطبراني وابن حبان، وهذا أهم دليل عند الصوفية لتلقيين الذكر.

أما من أراد أن يشرع بذكر لا إله إلا الله فينبغي له أن يعتني بشأنها فيختار الأزمنة المشرفة كوقت السحر وهو أجل الأوقات وأشرفها، وبعد الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد العصر إلى غروبها، أو ما يناسبه من الأوقات.

فيتطهر طهارة معنوية وحسية فيتوضأ ويلبس ثياباً طاهرة، ويتطيب، ويتسوك، ويقصد موضعاً طاهراً، وليتحرر الخلوة والانفراد عن الخلق أو مع جماعة، ثم يجلس ويستقبل القبلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ثم يستفتح ورده بالاستعاذة من الشيطان الرجيم لما جاء عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من الليل يقول: (أَعُوذُ

بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ، وَنَفْحِهِ، وَنَفْثِهِ" رواه أبو داود والترمذي، ثم يسمي بسم الله الرحمن الرحيم لما جاء عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ) رواه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأدب الراوي وأخلاق السامع" وفي لفظ: (أَبْتَرُ)، وفي لفظ: (أَجْدَمُ)، ثم يحمد الله تعالى لحديث فضالة بن عبيد قال: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: عَجَلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ، ثُمَّ ادْعُهُ، قَالَ: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ تُحِبُّ) رواه الترمذي والنسائي، ثم يستغفر الله تعالى عشر مرات ليتخلى من أمراض القلب قبل أن يتحلى بتطيبه بالذكر فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) رواه أحمد، ثم يصلي على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحديث فضالة السابق وفيه (وَصَلِّ عَلَيَّ)، وبعد أن يأتي بهذه الأمور يشرع بذكر ورده من (لا إله إلا الله) بالطريقة التي تلقاها عن السادة العلماء: فيمد

الألف مدأً طبعیاً من (لا) أو أكثر، ویحقق الهمزة ویفتح الهاء من (إله) ویسكن الهاء من (اللّه)، وأقله عشر مرات، وأما أكثره فلا حد له، ثم یختم ورده بما بدأ به من حمد لله وصلاته على رسول الله صلى الله علیه وآله وسلم.

* واعلم أيها المرید أن المواظبة على ذکر لا إله إلا الله تحصل بها على فوائد كثيرة منها:

(1) خلو باطنه من الميل إلى فانٍ، وفراغ القلب من الشقة بزائل وإن كانت اليد معمورة بمتاع حلال.

(2) ثقة القلب بربه بحيث یسكن من الاضطراب.

(3) التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه.

(4) غناء القلب وسلامته من فتن الأسباب، فلا یعترض على الأحكام بـ:

لولا بـ: لعلّ.

(5) وضع البركة في المال والطعام وغيرهما.

واعلم أنه لو لم یکن في بیان فضلها إلا كونها علامة على الإيمان في الشرع لا تعصم الدماء والأموال إلا بحقها، وكون إيمان الكافر موقوفاً على النطق بها، وما ورد في فضلها من أحاديث كثيرة وكثيرة جداً وقد ذكرنا برأس القلم منها، وقد ألف العلماء في ذکر لا إله إلا الله مؤلفات، منها

رسالة في معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لبدر الدين الزركشي، وغيرها
كثير، فهذا كاف للعقلاء لتلقيها وترديدها والاعتناء بها، وهو ديدن
الطريقة الشاذلية.



فصل في ذكر اسم الله المفرد (الله)

قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنعام: ٩١، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ البقرة: ٢٥٥، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ الحج: ٦٢، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الإخلاص: ١،

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ أَلَّهُ) رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ) قَالُوا وَمَا الْمُفْرِدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) رواه مسلم، وعن معاذ بن جبل قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) رواه الطبراني.

- أما من أراد أن يشرع بذكر الاسم المفرد (الله) فينبغي له أن يعتني بشأنها، فيختار الأزمنة المشرفة كوقت السحر وهو أجل الأوقات وأشرفها، وبعد الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد العصر إلى غروبها، أو ما يناسبه من

الأوقات، فيتطهر طهارة معنوية وحسية، فيتوضأ ويلبس ثياباً طاهرة، ويتطيب، ويتسوك، ويقصد موضعاً طاهراً، وليتحرّ الخلوة والانفراد عن الخلق، أو مع جماعة، ثم يجلس ويستقبل القبلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ثم يستفتح وردّه بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، ثم يسمي بسم الله الرحمن الرحيم، ثم يحمّد الله تعالى، ثم يستغفر الله تعالى عشر مرات، ثم يصلي على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كما مر معنا في ذكر لا إله إلا الله -.

وبعد أن يأتي بهذه الأمور يشرع بذكر الاسم المفرد (الله) بالطريقة التي تلقاها عن السادة العلماء، فلا يمد (الألف) مدّاً طويلاً يخل باللفظ فينقلب المعنى إلى استفهام، وينبغي أن يسكن الهاء، ولا ينقص حرفاً من حروف اسم الله المفرد، بل ينطقها كاملة مع تحقيق حرف الهاء وإخراجه من مخرجه، وأقل الذكر بالاسم المفرد (الله) عشر مرات، وأما أكثره فلا حد له، ثم يختم وردّه بما بدأ به من حمد لله وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* وقد ذكر العلماء فوائد كثيرة يتحصل منها العبد من المواظبة على ذكر الاسم المفرد (الله) منها:

- (1) التوفيق في اجتناب زهي الله عز وجل وامثال أمره.
- (2) التخلص من الغفلة والنسيان بمداومة حضور القلب وإخلاص ذكر اللسان.
- (3) غلبة الخير على الشر.
- (4) جلاء القلوب بنور المولى سبحانه وتعالى.
- (5) زيادة القرب من الله عز وجل.

واعلم أن هذا الاسم قد كثرة التأليف فيه والكلام عنه، وذلك للحث على الذكر به لمحبة الله له، وتعظيمه عنده، وعلو مقداره، وتخصيص فضله، وإظهار شرفه، لكي تشرق على القلوب والأبدان شمس أنواره، وقد ألف ابن عطاء الله السكندري كتاباً سماه: "الله: القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد".



فصل فی الصلاة علی سیدنا رسول الله

صلی الله علیه وآله وسلم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والأحاديث في فضلها والأمر بها أكثر من أن تُحصَر، ولكن نشيرُ إلى أحرفٍ من ذلك تنبيهاً على ما سواها، وتبركاً بذكرها، فعن أبي بن كعب قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: مَا شِئْتَ، قَالَ قُلْتُ: الرَّبُّعُ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: التَّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا، قَالَ: إِذَا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ) "رواه الترمذي"، وعن جابر بن عبد الله أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَقَى الْمِنْبَرَ فَلَمَّا رَقَى الدَّرَجَةَ الْأُولَى قَالَ: (آمِينَ) ثُمَّ رَقَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: (آمِينَ) ثُمَّ رَقَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ: (آمِينَ)، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: سَمِعْنَاكَ تَقُولُ آمِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ: (لَمَّا رَقَيْتُ الدَّرَجَةَ الْأُولَى جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: شَقِي عَبْدٌ أَدْرَكَ رَمْضَانَ فَأَنْسَلَخَ مِنْهُ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: (آمِينَ)، ثُمَّ قَالَ: شَقِي عَبْدٌ أَدْرَكَ

وَالِدِيهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ: (آمِينَ) ثُمَّ قَالَ: شَقِي عَبْدٌ ذُكِرَتْ
عِنْدَهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَقُلْتُ: (آمِينَ) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبري في تهذيب
الآثار، وعن جابر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (مَا اجْتَمَعَ
قَوْمٌ ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ وَصَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ إِلَّا قَامُوا عَنْ أَنْتَنِ جِيفَةٍ) رواه الطيالسي، وعن أنس بن مالك قال: قال
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ عَشْرًا، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ عَشْرًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مِائَةً، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِائَةً
كَتَبَ اللَّهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ بَرَاءَةً مِنَ النَّفَاقِ وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ وَأَسْكَنَهُ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مَعَ الشُّهَدَاءِ) رواه الطبراني.

فمن أراد أن يشرع بورد الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم فينبغي له أن يعتني بشأنها فيختار الأزمنة المشرفة كوقت السحر
وهو أجل الأوقات وأشرفها، وبعد الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد العصر
إلى غروبها، أو ما يناسبه من الأوقات، فيتطهر طهارة معنوية وحسية
فيتوضأ ويلبس ثياباً طاهرة، ويتطيب، ويتسوك، ويقصد موضعاً طاهراً،
وليتحرر الخلوة والانفراد عن الخلق أو مع جماعة، ثم يجلس ويستقبل
القبلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ثم يستفتح ورده بالاستعاذة من الشيطان

الرجيم، ثم يسمي بسم الله الرحمن الرحيم، ثم يحمده الله تعالى، ثم يستغفر الله تعالى عشر مرات، ثم يصلي على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كما مر معنا في ذكر لا إله إلا الله -، وبعد أن يأتي بهذه الأمور يشرع بذكر الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك صيغ تعددت وتنوعت منها الطويل ومنها القصير، والطريقة الشاذلية قد اتخذت من صيغة (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً) شعاراً ودياراً لها.

وأقل ذكر الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر مرات، وأما أكثره فلا حد له، ثم يختم ورده بما بدأ به من حمد لله وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

- * وقد ذكر العلماء فوائد كثيرة يصعب حصرها بمكان في الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تأتي على نَتْفٍ منها:
- (1) امتثال أمر الله بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
 - (2) موافقته سبحانه وتعالى في الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم.
 - (3) موافقة الملائكة في الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

- 4) حصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم واحدة.
- 5) أنه يُرفع عشر درجات.
- 6) يُكتب له عشر حسنات.
- 7) تُمحي عنه عشر سيئات.
- 8) تُرجى له إجابة دعوته.
- 9) أنها سبب شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم.
- 10) أنها سبب لغفران الذنوب وستر العيوب.
- 11) أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه.
- 12) أنها سبب لقرب العبد منه صلى الله عليه وآله وسلم.
- 13) أنها تقوم مقام الصدقة.
- 14) أنها سبب لقضاء الحوائج.
- 15) أنها سبب لصلاة الله والملائكة على المصلي.
- 16) أنها سبب زكاة المصلي والطهارة له.
- 17) أنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته.

- (18) أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.
- (19) أنها سبب لرده صلى الله عليه وآله وسلم على المصلي عليه.
- (20) أنها سبب لتذكير ما نسيه المصلي عليه صلى الله عليه وآله وسلم.
- (21) أنها سبب لطيب المجلس وألا يعود على أهله حسرة يوم القيامة.
- (22) أنها سبب نفي الفقر عن المصلي عليه صلى الله عليه وآله وسلم.
- (23) أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره صلى الله عليه وآله وسلم.
- (24) نجاته من دعائه عليه برغم أنفه إذا تركها عند ذكره صلى الله عليه وآله وسلم، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) "رواه أحمد".
- (25) أنها تأتي بصاحبها إلى طريق الجنة.
- (26) أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه اسم الله ولا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- (27) أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتداءً بحمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

- (28) أنها السبب لفوز العبد بالجواز على الصراط.
- (29) أنها تخرج العبد عن الجفاء بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- (30) أنها سبب لإلقاء الله تعالى الثناء الحسن على المصلي عليه صلى الله عليه وآله وسلم بين السماء والأرض.
- (31) أنها سبب رحمة الله عز وجل.
- (32) أنها سبب للبركة.
- (33) أنها سبب لدوام صحبته صلى الله عليه وآله وسلم وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان لا يتم إلا به.
- (34) أنها سبب لمحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمصلي عليه.
- (35) أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه.
- (36) أنها سبب لعرض المصلي عليه وذكره عنده صلى الله عليه وآله وسلم.
- (37) أنها تثبت القدم.
- (38) تأدية الصلاة عليه لأقل القليل من حقه صلى الله عليه وآله وسلم وشكر نعمة الله التي أنعم بها علينا.

(39) أنها متضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعامه.

(40) أن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم من العبد دعاء وسؤال من ربه عز وجل فتارة يدعو لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتارة لنفسه ولا يخفى ما في هذا من المزية للعبد.

* وَإِنَّ مِنْ أَكْثَرِ الثَّمَرَاتِ وَأَجْمَلَ الْفَوَائِدِ الْمَكْتَسَبَاتِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ انطباع صورته الكريمة في النَّفْسِ انطباعاً ثابتاً متصلاً، وذلك بالمداومة على الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بإخلاص القصدِ وتحصيل الشروط والآداب، وتدبر المعاني حتى يتمكن حبه في الباطن تمكناً صادقاً خالصاً تصل به نفس الذاكر لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويؤلف بينهما في محل القرب والصفاء، تأليفاً بحسب تمكن حبه من النفس فالمرء مع من أحب والحب يوجب الاتباع للمحبوب، والاتباع يؤذن بالوصال، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء: 69، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وفي هذا الفصل لا نجد عالماً من أهل الله إلا وحبر قلمه وكتب في فضل الصلاة على رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم، فكانت المؤلفات يصعب حصرها وعدّها ومن أجمعها وأفضلها "القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيح" للإمام العلامة الحافظ شمس الدين محمد السخاوي.

* نَسألُ المولى عزَّ وجلَّ أن يجعلنا سالمى الصدور، مطهرينَ من الذنوب، مستورينَ من العيوب، إنه علامُ الغيوب، راجين أن يتداركنا الله برحمته، ويجعلنا من أهل عنايته، ويشملنا بعموم لُطفه الخفي، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة حقيقٌ وجدير.



خَاتِمَةٌ

وتمّ الفراغ من كتابته يوم السبت 19 جمادى الآخرة 1435 هجري الموافق 19 أبريل 2014 رومي من أيام اشتداد المحنة والابتلاء، على الساعة الحادية عشر ليلاً، غزة الأعزّة حماها الله تعالى وحرسها ولطف بها وبأهلها آمين يا رب العالمين.

وكتب خادم العلم الشريف
العبد الفقير إلى مولاه الراجي عفوه ورضاه
أبو الفضل العباس أحمد بن منصور قرطام
الحسيني المالكي الشاذلي التونسي الفلسطيني الأصل اللبناني المولد
كان الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين بمنّه وكرمه
أمين أمين آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،
وصلّ اللهم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين
الطاهرين.



بسم الله الرحمن الرحيم

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

- 3.....الكاتب في سطور.....
- 10.....بين يدي القارئ.....
- 12.....مقدمة.....
- 16.....فصل في ترتيب العلوم وأهميتها وكيفية تلقيها.....
- 25.....كيفية تلقي العلوم.....
- 30.....فصل في مبادئ علم التصوف.....
- 30.....أولاً: حد التصوف.....
- 32.....ثانياً: موضوع التصوف.....
- 32.....ثالثاً: واضع علم التصوف.....
- 34.....رابعاً: اشتقاق اسم التصوف.....
- 34.....خامساً: استمداد التصوف.....
- 36.....سادساً: حكم التصوف.....
- 37.....سابعاً: مسائل تصور التصوف.....
- 38.....ثامناً: فضل التصوف.....
- 38.....تاسعاً: نسبة التصوف من العلوم.....
- 39.....عاشراً: فائدة التصوف.....
- 40.....فصل في تعريف التصوف.....

- 45.....فصل في صحبة الشيخ والأخ الصالح.
- 50.....فصل في الوفاء والبرور.
- 55.....فصل في التوبة النصوح.
- 59.....فصل في المراقبة والمحاسبة.
- 63.....فصل في صدق المعاملة.
- 68.....فصل في العلم قبل القول والعمل.
- 71.....فصل في تطهير القلب.
- 74.....فصل في الذكر.
- 78.....فصل في الحمد والشكر.
- 84.....فصل في الرجاء والخوف.
- باب في ذكر لا إله إلا الله والاسم المفرد (الله) والصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.....90
- 91.....فصل في ذكر (لا إله إلا الله).
- 96.....فصل في ذكر اسم الله المفرد (الله).
- 99.....فصل في الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- 107.....خاتمة.
- 109.....فهرس الموضوعات.



إصدار



المركز الوطني للبحوث والدراسات
التابع لآل البيت - فلسطين
الموقع الإلكتروني: www.alabait.ps

ISBN: 978-9938-12-997-7

